

تونس.. ثورة خارج الوصايا

فاطمة الشريف

إبراهيم السخاوي

إصدارات خاصة

تونس.. ثورة خارج الوصايا

فاطمة الشريف
إبراهيم السخاوى



سلسلة
الإصدارات الخاصة

تصدرها
الهيئة العامة لقصور الثقافة

• تونس.. ثورة خارج الوصايا
• فاطمة الشريف
• إبراهيم السخاوى
الهيئة العامة لقصور الثقافة
القاهرة - 2013م
16,5 x 23,5 سم
• تصميم الغلاف: أحمد الجنايني
• المراجعة اللغوية: شعبان ناجى
• رقم الإيداع: ٢٠٥٧ / ٢٠١٢
الترقيم الدولى: 978-977-718-193-8
• المراسلات:
باسم / مدير التحرير
على العنوان التالى: 16 شارع أمين سامى - قصر العينى
القاهرة - رقم بريدى 11561
ت: 27947891 (داخلى: 180)
• الجمع والإخراج:
وحدة التجهيزات الفنية
الإدارة العامة للنشر
• الطباعة والتنفيذ:
شركة الأمل للطباعة والنشر
ت: 23904096



تعنى بنشر الأعمال الفكرية والثقافية والأعمال الخاصة
لأبرز الكتاب فى مصر والعالم

تونس.. ثورة خارج الوصايا

المحتوى

- إهداءعام 7
- إهداء خاص 9
- تقديم 11
- قبل أن نبدأ........................ 15
- من يوميات الثورة جلول عزونة 25
- ثورة شاعر علالة القنوني 43
- كيف كتبْتُ الثورة د.آمنه الرميلي 53
- بين زرقتين خالد سليمان 71
- الثّورة العارية عماد الزغلامي 79
- تراتيل ثورية راضية الشهايبي........................ 91
- الثورة والأصوليّة الثقافيّة عادل بوعقة........................ 97
- حكاية بنت البحر مع الثورة حفيظة قارة بيبان.... 109

شهادات متشظية من الحلم المستعصي

- إلى الأمل البنّاء منذر شريط 119
- ثورة تونس بين الحلم والإنجاز محمد الجابلي 131

حين تصبح الثورة غنيمة والثقافة وليمة !!؟

الثقافة بين فكي الثورة وأنياب الديمقراطية

- شكرى العيارى........................ 137
- كلمات كالسيف........................ 143
- الخاتمة........................ 147

إهداء عام

إلى كل من رحلوا لنبقى، إلى كل من واراهم الثرى لتبرز الثريا. ويعمَ الضياء والإباء، إلى كل شهداء تونس ومصر وليبيا واليمن وسوريا.. وإلى كل الشهداء فى كل شبر من وطننا العربى.

إليك ياشعب تونس العظيم، كل أحرف أبجدية جديدة، للغة وطن جديدة، وفى كتب جديدة، يكتبها الصمود والعزة وينشرها حمام الحرية والكرامة.

فاطمة الشريف

إبراهيم السخاوى

إهداء خاص

إلى أبى رحمه الله وإلى أمى الغالية منكما تعلَمت أن لا اقطف ثمرة قبل نضجها لأتمتع بطعمها. واليكما أدين بعدم تعثُر الخطى أو التقهقر وسط الطريق.

والى عمر محفوظ زوجى وحبيبى وصديقي ورفيقي بل ثمرة وحدتى وفاكهة امرأتى ومتعة صبرى فهو «رجولة خارج وصايا» الزمن وأمومة خارج محراب الأنانية. لك القلب والجسم وما بينهما من حياة يارفيق أحلامى

فاطمة الشريف

إلى روح أبى الذى أدركته المنيَة فلم يدرك أحلامه بمصر الانطلاقة. وإلى أمى الحبيبة نبع صبر وعطاء أطال الله فى عمرها... وإلي أخواتى اللاتى كنت بينهن إبنا وصديقا.. وإلى زوجتى «شرين» حب حياتى وطيب أحلامى وابننا شادى الذى ولد فى حضن الربيع العربى. وكلى أمل فى أن يقطف ثمار ثورة الحرية والكرامة هو وكل أبناء أمتنا العربية التى تثبت كل يوم أن معانى العزة والإباء بذرة أرضنا

إبراهيم السخاوى

تقديم

لقد كان أمل التحرَر والانعتاق مثل الحلم الذي يراودنا صباحا ومساءً، إذ ضاقت بنا الدنيا ولَفتنا أحوالها المتعبة كحبل يشدَنا إلى المكان نفسه أو إلى الوراء.. ماكانت تنطلق من ذواتنا غير آهات الظلم والقهر، وكان الرَفض غصَة ترتفع بالحنجرة وتنزل لتزيد من تأرجح القلب وتمزق النفس، كنا ننتظر لحظة يبزغ فيها فجرٌ جديدٌ فصرنا كما قالت الأديبة التونسية فاطمة الشريف في ديوانها "وطن يعاقر الانتظار" عاقرنا الانتظار وغلالة الظلم والاستبداد لم تمنعنا من الحلم ولم تتقهقر خطوات انتظارنا وإن طال.

انطلقت تونس على غير موعد ودون ترتيب تقول للعالم إنّ بلد الياسمين أنبتت وردة أخرى إسمها الإرادة، وستشمّون رائحة الحرية والإباء كلما زرتم تونس أو سمعتم عنها أو بحثتم فى خرائط البلدان .

إنها لحظة عظيمة، لحظة حَرْق نَفس بشرية مِنْ سيدى بوزيد أدَّت إلى حرق كومٍ من الخوف والصمت وراح الدخان يبحث عن جمرات صبر مزمن ورماد أحلام فيذكى لهيبها . وَهبَّ الشَّعْبُ المصرىً للمنادية تونس الأبية ثم الشعب الليبي واليمني والسوري .

لقد اخترق الألم دواخلنا مع سقوط أوّل شهيد ثم تلاه شهيد بعد آخر إلاّ أن إيماننا بأنه كلما كان الثمن غالياً كان المكسب أثمْنُ .

إن لشعوبنا قصصها ولكل شهيد قصّةً. قلوبنا للحرية جاعت ، كانت دموعنا على

الشهداء كلسعة نار ألهبت العطاء للوطن فكانت التضحيات دونما اكتراث .

تجاوزت عظمة الشهادة في سبيل الله والوطن حدود المكان وصارت أرقام الشهداء مراحل تجربة عظيمة وأرقاما لميلاد أمَة لن تقبل التقهقر.

ارتوت الأرض الخضراء بدماء الشهداء فولّد لون آخر للأرض ونبتت ثمارٌ أخرى لتونس غير الزيتون والتمر .. شجرة شموخ نبتت فيكِ ياتونس الحب والعطاء

بنى تخمتى..
أطعمنا المجاهل..
وشربنا المآخذ..
سرقنا الجوع والعطش..
فاشتاقت أجسامنا ..
إلى أن..
تسرق منّا.
حبّات الزيتون..
لفحولة طفل..
تحرق عصيرها..
وعود الزيتون ..
لرجولة امرأة..
يعلن الحداد..
على كل أخضر.
وقع الحلم..
وفى حضنى وقع•

• (ص23) من ديوان وطن يعاقر الانتظار، للشاعرة التونسية فاطمة الشريف(2008)

نعم: في الحضن وقع الحلم احتضنّاه ولن نفرّط فيه وسنرعاه حتى يكبر.

تونس.. ثورة خارج الوصايا. وصايا من أوهمونا إنه قدرنا كشعوب عربية أن نرضى بمقت الحياة، وصايا نخبة معظمها مشى فى ركاب الحاكم إما خوفا أو طمعا فى جوائز وعطايا مسمومة ، ونخب سياسية ادّعى معظمها المعارضة وكان عباءة ثانية للحاكم .

نعم هى ثورّة خارج وصايا من قالوا للحكّام لبّيكم وكتبوا مالم تقل الشعوب ومالم تفوّضهم به .

حذّرونا من جيل الكليبات والإنترنت والهوس الكرويّ وقالوا لنا هم خطر على هويتنا وعلى ديننا وعلى ثوابتنا، إلا أنَّ ذلك الجيل مزّق تعريفاتهم وصنع منها حبالا تشدّنا إلى الأعلى وإلى حياة أفضل وصار الابن أبا :

كان لى ابن ..
وكنت انتظر ابنة. كزعيم فى حلم
لكن .. ابنى المزارع المشبوه ..
كمدينة خارج الزمن..
فى وجه عرّاف الحرّية..
أغلق بابه وصاح ..
أرضاً تحتاج سنبلة الملك .
قد علّق ابني يديه ..
وأشهر رغيفه .
صرت الإبنة..
وصار ابنى الأب.
والآن كلانا .. فى سوق الأيادي ..
زحام سنابل•

• من ديوان سوق الأيادى، للشاعرة التونسية فاطمة الشريف، (2007)

نعم تعلّمنا من شبابنا والتحقنا بركب صمودهم وشعلة رفضهم للوصايا . ولن نرضى بأوصياء على دماء الشهداء وعلى لغتنا وهويتنا وديننا وعلى تنشئة أبناء بغير حليب صنع بعد الثورة حليب ليس فيه طعم الصمت القاتل والخنوع المرّ .

فثورة تونس كانت خارج وصايا المستعمر، أيضا الذى قسّم البلاد العربية. أثبتت هبّة مصر بعد تونس ثم ليبيا واليمن وسوريا أنّ الجرح واحد والمقت واحد والشموخ العربي واحد.

إلى الجحيم كل من أدمنوا جلسات التنّظير، ومن أدمنوا الحسابات الضيّقة ومن أدمنوا التّعالى على الشعوب، ومن لم يعرفوا الفقر والعجز والمقت وضياع الحلم فى انتظار عقيم إلاّ عبر صفحات من رواية أو ريبورتاجات لحلقات تليفزيونية تعيسة.

تنافسوا فى الرّكوب على الثورة وتزاحموا لإظهار شامات النضّال .. وعمامات الإمامة .. لم تتعلّموا الدَّرْسَ ولم تفهموا العبر. إن لم تتغيّروا وتفهموا أنّ من ترك همّ الشعوب خلف بابه فلن يعبر إلى الداخل ولن تكون خطواته غير تخبّط عشوائيّ.

كبرنا على الخطوات المتعثّرة والألسن المرتّقة والحناجر المهترئة . عظيم هذا الشعب وتلزمه أبجدية أخرى .

ليعترف عشّاق الأحرف بأنّ أبجدّية الصّمت ماتت وأنّ قافية الخنوع تدلّت. ياه .. يا إلهي .. وكأنّ دماء الشهداء نقاط جديدة لأحرف جديدة فى بلد الرّفض ووطن الصّمود.

فاطمة الشريف

ابراهيم السخاوى

تونس 14 يناير2012

القاهرة 14 أبريل 2012

قبل أن نبدأ

مثلما كان الفضاء الإكترونى ساحة للحرب وطبولها، كان أيضا وسيلة لتلاقى الحالات الإبداعية المتفجَرة (لإنتاج انتصار وإبداع توثيق) فما إن تلاقت الأهداف والطموحات مع الأديبة التونسية فاطمة الشريف حتي بدأ حلم هذا الكتاب وكان إيمانها بضرورة الإسراع للإمساك باللحظة الإبداعية الآنية لدى أدباء وأديبات تونس. الذين كتم النظام إبداعهم إلاّ أنها أوصت (والوصاية خير وسيلة للتعاون) بأهمية الإمساك بملامسة اللحظة ميدانيا والتقاطها من أحاديثهم على الهواء مباشرة. فكانت زيارتى لتونس ولقائي المباشر بفاطمة والإنطلاق نحو الهدف بجدَ يسبقه إيمان ويقين بأنه لابد من توثيق عمل ميدانى مشترك

سافرت إلى تونس وعادت فاطمة الشريف إلى مصر لم يكن الهدف من مساعينا وسفرنا والبحث عن ناشر غير إظهار بعض أصوات الساحة الثقافية التونسية من خلال بعض الأقلام الحرة التى حجب النظام السابق عنهم كل تكريم وتشجيع، وأيضا أردناه اعترافا عمليا وميدانيا للمشهد التونسي ولنؤسس لإخوة عملية بعد الثورة، فألف شكر لكل الأسماء التى مدَتنا بشهاداتها ولكل الأسماء التى لم يتَسع هذا الكتاب لإضافتها لتقيدنا بحجم الكتاب

لقد لبَى الشعب المصري دعوة الشعب التونسي. وكانت الثورة والانعتاق .. فألف شكر ياتونس الحبيبة .

ولبت الأديبة التونسية فاطمة الشريف الدعوة لعمل مشترك كتحيًة ودَ واحترام عربية . فألف شكر لأديبتنا المحترمة.

وقد أجريت معها حوارا نشر بجريدة الأهرام بتاريخ 30 مارس2012
تحت عنوان (لا أخاف أن تعود تونس للوراء.. فلن نستبدل قمعا بقمع؟)

• فاطمة الشريف شاعرة وروائية تونسية، أديبة تجاوزت العقد الرابع من عمرها الذي أعطت أكثر من نصفه للكتابة والعمل النقابي. لكنها لاتزال شابة ولا تزال تعطي أكثر من قبل، لم تطلب شيئا ولم تاخذ شيئا رغم أنها تقول أن الله منحها حب الناس واحترامهم وهو ما لا يقدر باي جائزة أو عطايا. اعتبر العديد من النقاد والصحفيين في العالم العربي أن كتاباتها ثورية ومدافعة عن كرامة الشعوب وهوية الامة وقضية فلسطين والعراق قبل قيام الثورات. وعناوين كتبها الورقية والإلكترونية تدل علي ذلك.. لست من رحم حواء(شعر)/ عذراء خارج الميزان(رواية)/ أيصبح الطين طيبا ؟(شعر)/ وطن يعاقر الانتظار(شعر)/ سوق الأيادي(شعر)/ رجولة خارج الوصايا(رواية). كل ذلك الي حدود سنة2010 ستة كتب ورقية منها كتاب صدر بمصر سنة 2000 وثلاثة كتب الكترونية بمصر لم تكرم في قصر الرئاسة او في اي مهرجان او جائزة ادبية، ربما لانها ككل المواطنين تعرف قصر الرئاسة كمارة من امامه وسمها الناس بشراء كتبها وبحبهم واحترامهم. وتم تكريمها بصالون نجيب محفوظ بمدينة6 اكتوبر سنة 2006 بمصر. انخرطت فاطمة الشريف في الثورة كما تقول كمواطنة، وبعد الثورة الغت كل تعاملاتها مع الهياكل والمنظمات الادبية والوطنية التي خذ لت الثورة في خضمها والشعب بعد الثورة كما قالت فغادرت نقابة الكتاب وهي من مؤسسيها ورفضت أن تكون بوقا لغير القصبة والشارع والشعب.

باختصار فاطمة الشريف شاعرة وروائية ونقابية وناشطة في الجمعيات وصوت ادمن الصراخ من اجل الامة. وكان حوارنا اثناء وجودي في تونس لحضور فعاليات الاحتفال بمرور عام علي الثورة التونسية.

• هل يخلق القمع ادبا مميزا حيث ان افضل الابداع الذي يكتب في عصور الاستبداد؟.

الاستبداد مبدع للوجع ومقبر للحلم وعندما يعيش المبدع تلك الحالة النفسية والحياتية فان إلهام الغضب يلتحم بإلهام الكتابة من أجل مقومات الإنسان داخله، وبصدق إبداعه ينطلق كمجنون حلم وكنبيّ بوح بين قومه الصامتين ولا يهم إن غضبوا منه وأعني الجبابرة أو أغضبهم فشطبوه من لائحة العطايا والتكريمات والثناء لأنه حقق سعادته كمبدع وحقق سعادة الآخرين الذين أرادوا القول والصراخ فلم يستطيعوا. لأن الله لم يمنح كل الناس هبة الكتابة وتمرُّد القلم على صور حائطية مزمنة وحكام أزمن بعض المنافقين تأليههم كدعاة رخاء رغم أنهم من فجَّروا قمامة العجز والجهلَ والكبت في منطقتنا العربية. حتى أنهم صاروا يخجلون من تاريخ مجدنا العربي والإسلامي وشطبوا معظمه من برامجنا المدرسية والجامعية.

هل تريد أن تقبل الشعوب أو تاريخها الأدبي كاتبا أو مثقفا تحاشي الاصطدام مع السلطة فاكتفي بالحب أو صار في ركابهم فمجدهم ثم يصعد بعد الثورة بكتب عن الثورة ويقول أنا ابن الشعب ومالك قلمي ؟.. الأكيد سيصدّق نفسه وسيصدقه من لم يبحث بعد في اصداراته. اما من صمت بتاتا ونطق بعد الثورة فأنا شخصيا أقبل منه.

- ما شكل الإبداع بعد الثورة وعلاقة ذلك بحكم الإسلاميين؟

الإبداع كان تحت طائلة كبت ذاتي واخر سياسي، وان عُلّق حاليا بأكمله علي شماعة السياسي وتحديداً علي نظام المخلوع أو الفارّ، الحقائق التي لم تظهر بعد ستمكننا من تسمية الأشياء بأسمائها. لكن لابد من الإقرار ببعض الذنب أن لم نقل معظمه على أحزاب معارضة ما عارضت ومنظمات أرَّخت خيانة تاريخية لقادتها يوم ارتمت في أحضان السلطة ورجمت أحضان انتظار شعب، وكذلك يقع اللوم علي أقلام كتبت عن تونس الأمن والأمان في عهد المخلوع، كتبوا له وعنه مستغفلين الشعب وطامسين للتاريخ. لا أخاف أن تعود تونس إلي الوراء لا من الإسلاميين ولا من اليساريين ولا من أي طرف، لأن هذا الشعب خلع مستبدا ولن يستبدل قمعا بقمع ولن تتحكم أي أقلية في إرادته وأحلامه وهويته ودينه، فأغلبية الشعب تقرّر مصيرها وتحمي ما تحصّلت عليه وما كان لديها من قبل. الإبداع لن يكون من الكبت

والقمع إلى الإنبتات، ولا من التطبيل إلي التعدّي علي الأشخاص والمؤسسات. الإبداع ليس تطاولا ولا دستورا لأي أجندة خارجية أو داخلية. على المبدع أن يحافظ على استقلاليته ونزاهة عطائه يعني لا يجب أن يصبح رد فعله عدائياً ويمكن أن يصبح فضحا جميلا للانتهازيين مهما كانوا، ونقداً بنّاءً لتونس ما بعد الثورة. ليبدع المبدع ويتحمل مسؤولية قلمه في مواجهة الفساد والظلم دون الانحياز لأي طرف ويبتعد عن العنف اللفظي الذي أصبحت ألاحظه في بعض نصوص لمبدعين أحب نصوصهم وأخاف عليهم من عاصفة المرحلة.

•هل سيكون للمثقفين دور في وضع الدستور؟

للمثقف المنخرط في حزب أو منظمة يعني من له انتماء سياسي معلن هذا مؤكد، أما الأديب المستقل فلا أظن، لأنه وقع إبعاده من المنابر الحوارية والبرامج التلفزيونية وغيرها، وهذا واضح ولا يمكن إنكاره، فكل الأقلام التي أعرفها والمستقلة منذ عهد المخلوع وكذلك المعارضة لم أرها إلا في الطريق أو عبر الهاتف في مكالمة. وكأن الأدب والأدباء لا يعنيهم شأن البلاد ووضع العباد، ربما على الأديب المستقل أن يدفع ضريبة استقلاليته في كل العصور والمراحل، شخصيا أراها أجلي ضريبة، لكنهم لن يمنعوه من المساهمة. بعد الثورة في نطاق جمعية "صدى الطفل" قمنا بحملة ضد العنف اللفظي والمادي لحماية الثورة مدة ستة أشهر بمناطق عديدة واكبها الأطفال والأولياء ولم يواكبها الإعلام لا المكتوب ولا المرئي رغم أهمية الموضوع وحاجة المجتمع إليه.

• كيف ترين ما يجب أن تكون عليه حقوق المرأة بعد الثورة؟.

كامرأة قبل أن أكون أديبة أرفض وزارة المرأة فهي أكثر من نصف المجتمع ولها حقوق وعليها واجبات لدى كل الوزارات، لكن أنا مع أن تكون هناك وزارة للأسرة والسلوك الحضاري تعنى بالمرأة والطفل والمسن، وتوطّد العلاقات في المجتمع.

استعملت المرأة كالثورة ورقة سياسية لعبت عليها كل أنظمة الاستبداد من قبل وكل الطامحين لمناصب بعد الثورة. وتحاربوا بها وتزايدوا عليها وعلى مكاسبها

الموجودة. ولم يقترحوا مكاسب جديدة عمليا، كان التزايد داخل تونس وخارجها. وفي الواقع المرأة التونسية أكثر النساء العربيات ظلما وصبراً. أنها تعمل صباحا ومساء لتتقاضي راتبا تعين به أسرتها إن لم أقل تعيلها وتقوم بشؤون المنزل وتقف وراء تدريس أبنائها بالبيت، وتحمل تسعة أشهر وإلي آخر يوم قبل الوضع عليها أن تعمل فالقانون يمتعها بشهرين من يوم ولادتها يعني يمكن أن يأتيها المخاض وهي في الحافلة في طريقها إلي العمل.

لا أحد فكّر في راحتها عملياً. هل طالب بعد الثورة أي حزب أو هيكل بإعفاء المرأة العاملة من العمل في الشهر التاسع علي الأقل أو في الأسرة عموما. أسرة أرهقتها الديون والقروض ودروس التدارك ممّا أثر على الودّ والهدوء بين أفرادها. فكّروا في عدالة أرقام بالمجلس التأسيسي مبدأ المناصفة الذي غاب تماماً عن أعرق منظمة تدافع عن العمّال وأكثر من نصف منخرطيها نساء بعد الثورة، لا وجود لأي امرأة في المكتب التنفيذي لاتحاد الشغل وهي من المضحكات المبكيات. كيف ندعي احترام حقوق المرأة ولا نفعّل قوانين ردعية للعنف اللفظي في الطريق العام وفي الأماكن العمومية، مما أصبح يقضي علي حرية تنقل المرأة. لا أريد أن أجلس في مقهى مع ابنة أختي مثلا، لأنّ ما نسمعه سويّا يُحرجنا وأضطرُّ إلي التصرف أحيانا كمواطن لا كمواطنة.

• تراجع دور المثقف في الثورة رغم أن الإبداع كان دائما ضد الفساد والطاغوت.. لماذا هذا لتراجع في رأيكم؟

تراجع دور معظم المثقفين في الثورة وليس كلهم. لأنهم انخرطوا في اللعبة السياسية منذ سنين طويلة ومنهم من كان بوقا للنظام ومنهم من كان مكلّفا بإدارة مهرجان أو دار ثقافة أو إدارة جهوية للثقافة وآخرون كانوا كراسي لكرسي بن علي لحوار الحضارات يعني باختصار معظمهم ما وقف ضد الفساد او ضد الطاغوت او لازم الصمت. والله قد غفر لمن لم ينخرط وظل صامتا ولكن هناك من انتفض بعد الثورة مباشرة كبطل نسيان أو تناسى وأصبح للشعب وللحق بوقا بنغمة جديدة قديمة

ومنهم من أقيل من مناصب وعيّن بأخرى. ذاكرة العباد لا تنسى والمقالات والكتب موجودة. لا يمكن أن نستغفل هذا الشعب مرتين، مرة بالتآمر عليه مع المخلوع وأخرى باستغفاله. هناك من لم يطلب الصفح من الشعب لا جهراً ولا خلسة، بل معظمهم.

• ما هو موقفكم من الثورة منذ البداية؟.

الشيء إذا وصل إلي الحد انقلب إلي الضد، الصمت يولِّد الغليان، والصبر الطويل يولِّد بركاناً فجئيا. كل ما عاشه التونسي وصل إلي هرم التفشّي وأعني الرشوة والوصولية والانتهازية والكبت والتجهيل والفقر والضحك علي ذقون الشعب. كذلك وصلت حالة الاستهتار بعقل ومشاعر الشعب إلي هرم الغباء السياسي في ظل المناشدات بالبقاء الأبدي والانبطاح الرهيب لزغردات النظام وطبوله. عندما كنت اتنقل بين الجهات للمشاركة في الأمسيات الشعرية أو عبر التظاهرات الاجتماعية لبعض الجمعيات أشعر برماد الأحلام وغبار الحياة لكنني كنت ألمح لهيبا مخيفا وراء ذلك مما جعلني أضع قصيدة زحام علي غلاف ديواني سوق الأيادي الصادر سنة2007 وعندما تتمعن في القصيدة تراها دعوة للصراخ ولكسر الصمت والتعلم من الإبن من الشباب ليدفعونا إلي اقتحام الزحام من أجل سنابل تبحث عن أرض بعيداً عن عرّاف الحرية وكنت أقصد به المخلوع.

كذلك في كتاب وطن يعاقر الانتظار كل القصائد تلعن الصمت والخنوع في كل البلاد.

• كيف ترين مستقبل الابداع في ظل حكم الإسلاميين؟

الزلزال طال كل شيء ولابد من ترتيب الأوراق. وآمل أن يصبح للإبداع ربيعه المتزامن مع الثورة. وذلك بعيدا عن كل التجاذبات التي قد تقزِّم دور المبدع ولا تُعلي من شأنه. والمبدع الصّادق يفتّك مكانته من خلال إبداعه ويكتسب الاحترام والشهرة والتألق من المتلقي ومن إبداع نقاد صادقين يضيفون أحياناً إبداعاً آخر. ولا يمكن للإبداع أن يكون صورة لحضارة المجتمعات وتقدمها الفكري ما لم تتحسن صورة المبدع وتتألق بتغيّر أساليب تقديمه للآخر أفراداً ومجتمعات. إذ علي مرِّ

السنين - علي سبيل المثال - ما كانت للكاتب صورته المشعة ومكانته المادية والمعنوية عبر الإعلام وفي المجتمع وفي المناهج الدراسية وفي مخطّطات النهوض بنخبة البلاد.

لا مؤشر إلي يومنا هذا علي نيّة جديّة لتغير الأمور نحو حلم مزمن لكل من لا يُكتب في بطاقة تعريفه أنه حبر كتاب وانسياب عمر لأجل الآخرين. بل الكاتب يعتبرونه بين الرفوف كتابا إن احتاجوه نفضوا عنه الغبار إما ليقدّم لهم خدمة في حياته أو ليتباهوا به بين الأمم بعد مماته. لابد أن تتغير صورة المبدع ليتألق وليدفع بكل أنواع الإبداع إلي الأمام.

• هل يمكن أن يكتب الأديب الآن عن الثورة أم عليه أن يتمهل قليلا حتي تكتمل الصورة؟

الصورة ضبابية الآن لأنها بين الماضي والحاضر تتأرجح فيتدلّى وهمٌ كبير. لم تحدث ثورة ثقافية. بقيت صورة الكاتب كما هي وكما أرادها النظام السابق حظر احترام الكاتب والرفع من شأنه ماديا ومعنوياً. هيئة اتحاد الكتاب التي عملت في ركاب السلطة بقيت كما هي بعد الثورة ما يفوق سنة رغم مطالبة الكتاب بمؤتمر استثنائي ولم يفتح دفترها المالي ولم تحاسب أو تتغير حتى حددوا مؤتمراً خارج العاصمة وحضر من أرادوا حضوره وبقي نصف الأعضاء القدامى وفيهم من ناشدوا بقاء المخلوع. إذا وقع ترميم لهيكل اتحاد كتاب ونقابة الكتاب وكنت ممن اسسوها في عهد المخلوع اضطرارا لأن اتحاد الكُتّاب كان يخدم السياسة لا الكُتّاب. في خضم الثورة لم تجتمع النقابة مدة ثلاثة أشهر ولأنني طالبت باجتماع للوقوف مع الوضع الراهن انتظروا هدوء الأحداث وحاسبوني كموظفين لدى اتحاد الشُغل، عن علاقتي بجامعة عموم العملة التي كنت من مؤسسيها أيضا وغادرتها لأساليب المنسق العام ولتخاذلهم أثناء حوادث الحوض المنجمي منذ2009 يعني اتحاد كتاب مُرمّم ونقابة كتاب تابعة لاتحاد الشغل وفي خضم ذلك علي الكاتب أن يعمل ويفرض نصه بعيدا عن هياكل تابعة وغير محدثة الأنفاس. أضف إلي ذلك عملية إلغاء معرض الكتاب

الدولي وأن قيل تأجيل فهو إلغاء لسنة 2011 ولم تلغ التظاهرات الأخرى مثل معارض الإلكترونيات والأثاث والمسرحيات ومهرجانات الموسيقى. يحدث هذا بعد الثورة، فكيف نكتب ونبدع في ظل تجاهل للكتاب ولاستقلالية الكاتب. الأهم كان إدخال مصداقية واستقلالية على الهياكل وفرض احترامه وحقوقه علي الوزارة ثم ننطلق هذا رأيي ويلزمني إن احترس أحد من قول ذلك. أحترم كل من استطاع الكتابة في خضم كل ذلك وهنيئا له، يسعدني أن نغرق البلاد بكتب ليعرفوا أن الكتاب هنا وهناك وإن لم ينتبهوا لكنني شخصياً كل ما كتبته وكان ثورياً إلى حدود شهرين قبل الثورة وما قرأته في بعض الأمسيات كان من كتب صدرت لي في السنوات العشر الماضية وهي تتماشي مع المرحلة. ليس ذنبي أن تلاحق الأحداث وتراكم الإحباط قديما وحديثا وفوضى مفاهيم وسلوكات جديدة ألزموني بالتحرك ميدانياً كمواطنة وكمسؤولة في جمعية للارتماء في أحضان البلد والناس ربما خوفي على نفسي وعلى رصيدي السابق كان أقوي من أي تيار. ونار الإلهام داخلي بين الشعر والنثر وبين السياسة والمجتمع لم تهدأ بعد، لأشعر بدفء قلمي دون أن أحرق إبداعي والخط الذي رسمته منذ سنين طويلة.

• هل ستختلف معايير منح الجوائز حيث كان ماسحوا البلاط يفوزون بها؟

لن أكون متفائلة أكثر مما يفرضه الواقع لذلك علي القول أن كل المؤشرات حاليا تؤكد بقاء الحالة كما كانت بخصوص منح الجوائز لأن من أدمنوا مقاييس التوصيات والحسابات الشخصية وتسويق أسماء دون أخرى من عهد المخلوع لا يزالون في مواقع قرار وذوي نفوذ ثقافي وإعلامي خصوصا... وفي عديد الهياكل الأدبية وفي الوزارة وفي بعض السفارات وأعني ما أقول لأنني أقصد أسماء بعينها أعرفها منذ عشرين سنة تقريباً. هناك أساليب تخفي عن الكاتب النزيه الذي يكتب ويمضي باختصار الترميم لا يؤسس لمنطق تفاؤلي وعموما فإن الجوائز لا تخلق أديبا ولا تجعله مقروءا ولا تبقي على تألقه تاريخيا ومجتمعيا..

هذا الكتاب أردناه ثورة أقلام بعد ثورة شعوب .. وصرخة بعض المبدعين في وجه من ركبوا الثورة ومن لم يتعلَموا الدَرس وأثبتوا أنهم كمن خُلعوا لم يفهموا الانسان العربيَ بعد، ولم يدركوا أن رماده لهيب

وأردناه خارج الوصايا بكل المقاييس شكلا ومضمونا .

لأننا اعتبرناه واجبا وطنيًا إلي جانب كونه شفافية مبدعين .

إبراهيم السخاوى

من يوميات الثورة

جلول عزونة

جلول عزونة أستاذ جامعي وناقد وروائي ومناضل نشر العديد من الكتب تعرفت عليه الشاعرة فاطمة الشريف 1998 أثناء مناقشة روايتها «عذراء خارج الميزان» يومها عرفت أنه مثقف خارج النفاق وتواصلت الصداقة عبر نشاط رابطة الكتاب الأحرار الممنوعة من النشاط فكانت معظم الندوات تعقد فى بيته المحاصر بالبوليس السياسى الذى كان يسجل أرقام السيارات وكان معظم المثقفين يتحاشون الحضور «درءا للشبهات» وعملت فاطمة الشريف مع عزونة فى لجنة التضامن مع العراق وفلسطين بمنظمة التيير الدولية كان عطاء جلول عزونة فى عدة مجالات فى العمل النقابى والأدبى والقضايا العربية ولم تكن لديه حسابات من أي نوع فكان معطاء لأجل العطاء فهو شاهد على العصر وعلى الاشخاص سننقل ما كتب دون تدخل

• تمهيد : أو النزع الأخير لنظام بن علي .. يوم 13 يناير 2011

حوالي الساعة السابعة والنصف مساء، رنّ جرس الهاتف في منزلي، وإذا بقناة الجزيرة تطلب منّي رأيي حول الوضع في تونس، ويقول لي المخاطب سوف تعطي رأيك مباشرة في نشرة الأخبار بعد حوالي ربع ساعة. وفي تمام الثامنة إلا عشر دقائق يسألني الحبيب الغريبي:

بصفتك رئيسا لرابطة الكتاب الأحرار ما هو تقييمك للوضع الحالي في تونس.

فأجبت:

أعتقد أن النظام الحالي فقد كلّ مصداقيّة، وهو في قطيعة تامّة مع شعبه وعليه أن يرحل، خصوصا بعد عمليّات القتل العديدة التي طالت عشرات بل مئات المواطنين.

ولكن هذا الطرح بعيد عن الواقع، وهو طرح طوباوي ومثالي قد يبدو ذلك كذلك ولكنّني كاتب ومن حقّي أن أحلم لنفسي ولشعبي وأن أقول: إنّ هذا النظام انتهى وعليه أن يرحل و.. وقاطعني الحبيب الغريبي الفكرة وصلت ... وصلت وشكرا جزيلا

كانت الساعة تشير إلى الثامنة مساء إلا بضع دقائق ومع الثامنة كان الخطاب الثالث والأخير لزين العابدين بن علي الذي ظهر فيه مضطربا وكرّر فيه كلمات مثل: فهمتكم ... لا رئاسة مدى الحياة ... إلخ وما تبعه في قنواتنا من تطبيل ومديح للحاكم الفرد

يوم 14 يناير 2011 صباحا

في التاسعة صباحا بالضبط، كنتُ مع راضية النصراوي وريم الحمروني والأخ محمد مزام أوّل الواصلين أمام وزارة الداخلية بشارع الحبيب بورقيبة. كتبت مع الثامنة والنصف الرسالة التالية:

من جلول عزونة

رئيس رابطة الكتاب الأحرار

نهج عزوز الرباعي، زنقة 6، منزل 31

المنار الثاني، 2092

- إلى السيد وزير الداخلية
تونس في 14 يناير 2011

الموضوع : إطلاق سراح الحريّات الفكريّة والأدبية وطلب مقابلة

سيدي الوزير،
سلاما وتحية،

يشرّفني، في هذه اللحظات التاريخية الحاسمة التي فرضت فيها الدماء التونسية الزكيّة المُراقة طيلة أربعة أسابيع، الحرية والكرامة أن أتوجّه إليكم بهذه المطالب:

• إطلاق سراح الكاتب والمنظّر والمناضل حمة الهمامي، صاحب عشرة تآليف وعضو رابطة الكتاب الأحرار، خصوصا وهو لم يقترف أية جريمة إلا التعبير عن رأيه كمواطن حرّ.

• إطلاق سراح الكتب المحجوزة وآخرها المجموعة القصصيّة للمرحوم عبد القادر الدردوري حُجزت يوم غرّة يناير 2011، الأول من السنة الوطنية للكتاب، وهذا مطلق التناقض .

• أطلب مقابلتكم لإنهاء المظلمة المسلطة على منظّمتنا رابطة الكتاب الأحرار، منذ عشر سنوات في بلد يعرف التعددية الحزبية ولا يمكن ألا يعيش التعددية الثقافية، من أجل الاعتراف بمنظمتنا والذي يجب أن يُنهي مَا عشناه من إقصاء وتهميش

والسلام.

جلول عزونة

طلب مني العون بالزي الرسمي أن أسجل رسالتي في مكتب الضبط، فقلت له: سأعطيك نسختين، تسجل إحداها وترجع لي الثانية ولن أدخل بناية وزارة الداخلية لشكي الكبير في خروجي منها سالما بعد الدخول، فهي كما نعرف ويعرف الجميع، معقل للتعذيب والإهانة للمناضلين... كنا نطالب بإطلاق سراح حمة الهمامي ونسأل عن أحواله وهل عذب أم لا؟ وقيل لنا: اذهبوا واسألوا عنه في منطقة الأمن بباب البحر، وألححنا على ضرورة قبولنا من طرف وزير الداخلية، زميلي السابق في المدرسة الوطنية للمهندسين... وبعد أخذ ورد ونقاشات طويلة، جاءنا موظف ليعلمنا بأن مدير الشئون السياسية سيقابلنا ... وكان العديد من المواطنين قد التفّوا بنا وبدأ عددهم يتكاثر شيئا فشيئا، والتحق بنا عديد الصحفيين (تلفزة ألمانية وأخرى كندية وتلفزة نسمة وممثل وكالة الأنباء الفرنسية ومحاميان تونسيان اثنان وطبيب تونسي)، واشترطنا ألا ندخل إلا مع ممثلي الصحافة والتلفزات وجاءنا الرد سريعا. نعم، ولكن يدخل مع الوفد صحفي واحد، واقترح ممثل وكالة الانباء الفرنسية و(A.F.P) نفسه، فكان إصرارانا على الدخول مع كلّ الصحفيين والمحاميين . ولجأ الموظف إلى التسويف :

-إن مكتب السيد مدير الشئون السياسية لا يتّسع لهذا العدد من الأشخاص

وكان جوابي:

-إني أعرف هذا المكتب بالضبط وسبق لي أن زرته في مناسبتين اثنتين وعلى كل لن ندخل إلا بكامل العناصر وعددهم ما بين 13 و15 فردا

وبعد فترة من الزمن جاء الرد :

-نعم يمكنكم الدخول جميعا.

وبعد التشاور قررنا عدم الدخول لأن جوهر رسالتنا وصل في الآن نفسه إلى المسئولين في الحكومة وإلى الرأي العام لان التلفزات الحاضرة والصحفيين كانوا يصوّروننا

مباشرة ويسألوننا العديد من الأسئلة وكنا نجيب.

وفي هذه الأثناء ـ وكانت الساعة تشير إلى العاشرة والربع ـ انطلق عون أمن سري ، طويل القامة، ينادي بأعلى صوته :

-يحيا الزين... يحيا الزين !!

فما كان مني إلا القفز عليه ودفعته بكلتا يدي وأنا أصرخ :

-سكوتا وصمتا، لقد بقيتم طيلة 23 سنة تنادون بنفس النداء واليوم جاء دورنا لنقول بالصوت العالي "الزين يكذب وتحيا الثورة... وكفاكم تقتيلا للمواطنين» صمت العون باهتا... وبعد دقائق معدودات انطلق عون ثان" " يحيا الزين»... فدفعته بيدي، فصمت في الحال.

وماهي إلا لحظات حتى خرجت مواطنتان من باب الوزارة وشرعتا ترقصان وفي كل يد "محرمة" وترددان "يحيا الزين" تركناهما ترقصان وكنت أقول بأعلى صوتي :

- لن ندخل الوزارة وعلى السيد الوزير أن ينزل للمواطنين ولو مرة واحدة في حياته " اسم الله على الموبّر لا يتغبر" عليه أن ينزل وليبق في باب الوزارة وسنسلمه الرسالة ومطالبنا عندئذ، وعندئذ فقط ! !

ومع العاشرة وعشرين دقيقة، سمعنا هديرا كبيرا وأصواتا تقترب منا آتية من آخر شارع بورقيبة، همست لمرافقتي :

هاهي المظاهرة التي انطلقت مع الساعة العاشرة صباحا من أمام مقر الاتحاد العام التونسي للشغل تقترب منا، علينا بالانسحاب، لقد أدينا مهمتنا... وفعلا، انسحبنا بعد أن طلبنا من صحفية القناة التليفزيونية الألمانية أن تصحبنا إلى السيارة، خوفا من ردود أفعال غير متوقعة.

عودة إلى الوراء قليلا

نعم، إنّ الثورة التونسية السلمية ضد دكتاتورية بن علي كانت ثورة غير مؤطرة، أبطالها شباب طوّع منظومة الإنترنت بمواقعها الاجتماعية للتواصل وتنظيم الاحتجاجات والمظاهرات وتكوين لجان حماية الأحياء ولكن هذه الثورة سبقتها تحركات فردية وجماعية عديدة ومختلفة طيلة 23 سنة لابد من التذكير بها كمحطات مهمة في مقاومة الدكتاتورية

أ- قاوم حزب الوحدة الشعبية الشرعي نظام بن علي منذ سنته الأولى أي منذ أواخر أوت 1988 وتعرض مناضلوه إلى ثلاث قضايا عدلية ملفقة في الأشهر الثلاثة الأخيرة من سنة 1988 لانهم رفضوا سياسة الديكور السياسي التي انتهجها بن علي وأراد تطبيقها على حزبهم، ولأنهم صرحوا بأن بن علي لن يكون مرشحهم للرئاسة، في حين أجمعت كل القوى السياسية على ترشيحه لذلك المنصب كمرشح وحيد، وكانت النتيجة إيقاف أمين عام حزب الوحدة الشعبية ومحاكمته كأول سجين سياسي

●●●

تصادم نظام بن علي مع عديد من الأحزاب بعد ذلك ومع رموزها كحزب العمال الشيوعي وحركة النهضة ومع التيار القومي وممثله (البشير الصيد)، التيار الترستكي. منظمات المجتمع المدني كرابطة حقوق الإنسان ومنظمة النساء الديمقراطيات ورابطة الكتاب الأحرار التي تأسست في 13 يولية 2001 وداومت النشاط والتظاهرات، رغم المحاصرة والمنع إلى آخر سنة 2010، وقامت بحملة

وطنية عالمية ضد حجز الكتب وضد الرقابة على الإبداع، ووجدت الرابطة في منظمة التالير العالمية وفي مقرها بتونس الحضن الدافئ والراعي حين أغلقت كل الفضاءات أمام نشاطها. وكان آخر نشاط لها يوم غرة يناير 2011 بقليبية لمساندة عبد القادر الدردوري الذي حجز كتابه والذي مات في اليوم الثانى 2 يناير متأثرا بعملية الحجز

ج ـ الفضاء الدستوري : تكوّن سنة 2002 ونشّطه الأستاذ هشام موسى مع جلول عزونة ومحمد القوماني وبشرى بالحاج حميدة إلخ... من أجل بعث دستور جديد للبلاد بعد موت الدستور الأوّل مع الرئاسة مدى الحياة.

ج- تنسيقية المنْظمات: تكونت هذه التنسيقية ما بين 2003 و2004 وهي تظم نحو 10 منظمات مدنية، وبقيت تتابع الأحداث الوطنية وتأخذ المواقف الداعمة للحرية والمنددة بالقمع المسلط على المجتمع التونسي ودافعت عن المواطنة، وتتالت اجتماعاتها بشكل يكاد يكون يوميا في أوائل يناير 2011 ونددت بالقمع السياسي والعمى البوليسي وباستعمال الرصاص ضد المواطنين العزل (10 و11 يناير) وضرورة توقف ذلك والبحث عن حلول وبرامج أخرى.

د ـ دور الصحفيين الأحرار في فضح نظام بن علي

كان للصحفي توفيق بن بريك الفضل الكبير منذ سنة 2000-2001 في تعرية الأساليب الدكتاتورية والمافيوزية لـ «بن علي»، وفي الخارج لعب سليم بقة نفس الدور، ثم جاء دور سليم بوخذير والفاهم بوكدوس في سنة 2008 وزكية الضيفاوي وكذلك لابد من التنويه بدور صحف المعارضة: الطريق الجديد والموقف ومواطنون وما مثلته هذه الصحف من فضاءات حرة للنقد والكتابة والاقتراح والإبداع

أحداث المناجم

هي أهم حدث على الإطلاق قبل ثورة 17 ديسمبر 2010، وإن بقيت محصورة في الحوض المنجمي، ولكنها أظهرت بشكل جلي الحيف الاجتماعي والاقتصادي والتفاوت الجهوي في التنمية ولابد من التنويه، بدور النقابي عدنان الحاجي وصحبه في تنظيم الاحتجاجات وتصعيدها.

وإن نسيت فلن أنسى الزيارة التي قمت بها إلى منزله -بعد إطلاق سراحه- مع المحامية المناضلة راضية النصراوي ومع المناضل عبدالله قرام (أوت2010) وزيارة منازل عدد من المناضلين الذين لا يزالون عندئذ وراء القضبان مثل الفاهم بوكدوس وغيره.

و- دور المناضلين السياسيين والحقوقيين من أمثال المنصف المرزوقي، وحمة الهمامي ورفاقه ومحمد عبو وسهام بن سدرين وأم زياد وعلي بن سالم والمختار اليحياوي وكل من عرف السجون وناله التعذيب والطرد من العمل والتجويع. ومازلت أذكر الزيارة التي قمت بها بصحبة أربعة مناضلين (محمد النوري وعبد الرؤوف العيادي والعياشي الهمامي وعلي بن سالم) إلى منزل المنصف المرزوقي في حمام سوسة (سنة 2006) وكان محاصرا هناك بعد طرده من عمله. وكيف أوقفنا أعوان الأمن والحرس الوطني قرابة العشرين مرة ما بين تونس وسوسة بدعوى " التآكد من هويتنا وفي أوراق السيارة" وكيف تمدد خمستنا على عرض الطريق السريعة لتوقيف حركة المرور تماما احتجاجا منا على مراقبة تنقلات المواطن التونسي داخل بلده. ولم نتمكن من قطع الـ150 كم إلا في نحو 8 ساعات كاملة

هيئة 18 أكتوبر

تكونت هذه الهيئة يوم 18 أكتوبر 2005 وبقيت تعمل إلى شهر يناير 2011 وضمّت عددا من الأجزاب والمنظمات وبعض المستقلين (21 مؤسسا) (7 أحزاب 8 جمعيات و5 شخصيات مستقلة) انظر الكتاب الذي أصدرته الهيئة تحت عنوان طريقنا إلى الديمقراطية اكتوبر 2010، 46 صفحة بالعربية و49 صفحة بالفرنسية. ضمت هذه الهيئة جميع الأطياف السياسية من اليمين إلى اليسار، وهدفها هو إرساء الحدود الدنيا من الحريّات العامة والخاصة. وقد عرفت نقاشات حادة داخلها أسفرت عن تبنيها ثلاثة نصوص أساسية حول حقوق المرأة والمساواة بين الجنسين (18 مارس 2007) (ص و8و9 حرية الضمير والمعتقد: 18 أكتوبر 2008 (ص 10و11) في العلاقة بين الدولة والدين (10 ديسمبر 2009) (ص 12و13و14) تلك بعض المحطات المهمة في نضال المواطنين التونسيين طيلة حكم بن علي، ولم نذكر كل المناضلين ولا كل المحطات (هناك نضالات نقابية وثقافية عديدة) ولكن ما اعتبرناه مواقف، لم تحضّر لثورة تونس بصفة مباشرة، ولكنها مهدت لها بصفة غير مباشرة، بمثابة لأنها كانت بمثابة النار تحت الرماد والتي بقيت جذورها حية تنبئ بان جسم الشعب التونسي ينبض حرية وإن كان ذلك ببطء ولكنها العلامة على أن الدكترة والتصحر السياسي الممنهج من طرف بن علي لم يقضيا على الحياة فيه

أيام حاسمة

تواصل حضوري شبه يومي في مقر جمعية النساء الديمقراطيات ضمن عمل التنسيقية الوطنية للدفاع عن المواطنة منذ أواخر ديسمبر 2010 وأوائل يناير

2011 وحوصرنا هناك عديد من المرات ووصلنا الغاز الخانق الذي كان من أثر القنابل المسيلة للدموع التي استعملت في شارع الحرية قرب مقر دار الإذاعة .

ووقع اقتراح توسيع عمل هذه الجمعيات العشر إلى عمادة المحامين والاتحاد العام التونسي للشغل. ودخل نظام بن علي في مناورات الأيام الأخيرة، وتم اجتماع في مقر عمادة المهندسين بحضور اتحاد الشغل واتحاد الصناعة والتجارة ورابطة حقوق الإنسان ووقع منع بقية الجمعيات من حضور الاجتماع، وكان الغضب والاحتجاج والتنديد لحصر التشاور في أربع منظمات فقط

بعد فرار بن علي، انتقلت الاجتماعات التي تضمّ كل الأحزاب والمنظمات إلى مقر اتحاد الشغل المغاربي

اجتماع 17 يناير 2011

حضر 13 ممثلا عن الجمعيات والأحزاب وكان الإجماع آخر الاجتماع على طلب تأخير الإعلان عن الحكومة الجديدة (حكومة الغنوشي الأولى) وطلبنا من مصطفى بن جعفر وأحمد إبراهيم (وكانا حاضرين) ومن عصام الشابي ممثل الحزب الديمقراطي التقدمي بألا يقبلوا المناصب الوزارية التي عرضت عليهم منذ أيام وتأخير الإعلان عن الحكومة 48 ساعة أو 24 ساعة على أقل تقدير لمزيد التشاور، ورفض ذلك كل من أحمد إبراهيم وعصام الشابي وبقي مصطفى بن جعفر صامتا وطالب الحاضرون بتحقيق مطالب لا تقبل التأجيل مثل سن قانون العفو التشريعي العام

إعطاء التأشيرات للأحزاب والجمعيات

حل الشعب المهنية للتجمع الدستوري الديمقراطي الخ

ومن صباح الغد وعلى الساعة العاشرة، لم يحضر من ممثلي الأحزاب والجمعيات إلا القليل لأنه وقع في المساء الإعلان عن تشكيلة حكومة الغنوشي الأولى

19 يناير 2011

اجتمعت أحزاب وحركات يسارية وقومية ووطنية وبعثت جبهة 14 يناير انطلاقا من مشروع أرضية التقى حوله عشرة أطراف والهدف الأول: التجند من أجل حماية الثورة والعمل على تحقيق أهدافها.

20 يناير 2011

اجتمعت مع الأخ منير كشوخ وعدد من قيادة حزب الوحدة الشعبية الشرعي وأسسنا حزبا جديدا أطلقنا عليه اسم «الحزب الشعبي للحرية والتقدم» وشرعنا في إعداد قانونه الأساسي وتحضير الأوراق الضرورية لطلب التأشيرة القانونية لعمله

وفي نفس اليوم شاركت داخل بناية أفريكا في مائدة مستديرة بثتها الجزيرة مباشر شارك فيها كل من حمة الهمامي ومصطفى بن جعفر ومية الجريبي وأحمد الخصخوصي والجنيدي عبد الجواد، وحمادي الجبالي وعبد الرؤوف العيادي حول الثورة التونسية وحول الحكومة، هل يجب أن تكون حكومة "وحدة وطنية" أو حكومة انقاذ وطني؟ وقالت مية الجريبي: إن هذه الحكومة هي حكومة انتقالية وليست حكومة شعبية

وأما تدخلي فبينت فيه كيف استحوذ بن علي على حزبنا، حزب الوحدة الشعبية وأزاح قيادته الشرعية وزج بنا في السجن وأهدى الحزب إلى ابن خالة ليلى الطرابسلي

ثم تحدثت عن الوزير الأول عندئذ، محمد الغنوشي وهو الوزير الأول لـ «بن علي»

وكيف يجب عليه أن يرحل لأن حاله لا يخرج من حالتين اثنتين
إما أنه رجل ساذج، لا يعرف حقيقة فساد نظام بن علي ودرجة عفونته وهو إذن رجل لا يصلح للحكم
وإما أنه على علم بذلك الفساد وهو إذن مسئول بشكل كبير عن ذلك الوضع وعليه أن يرحل إذن ويحاكم

وبما أننا لسنا بشعب غبي ولا شعب دراويش، ولسنا "أغّه" و" لاسيدي تاتا" فعلى هذه الحكومة أن ترحل وان تحل محلها حكومة بوجوه جديدة تماما لنقطع بذلك عهد الفساد ووجوهه، لأن هذه الحكومة ظهر الآن بالكاشف المطلق أنها ليست حكومة وحدة وطنية بل هي وحدة وطنية كاذبة ومكذوبة، وذكّرت بالشعار المرفوع منذ أيام من طرف المتظاهرين في كامل تراب تونس: "توليشي الخبزة بلوشي لا لا للغنوشي».
وذكرت بضرورة مغادرة وزير الدفاع : رضا قريرة الحكومة لأنه ساهم في الفساد السياسي بتمكينه العديد من أفراد عائلة الطرابلسية من كثير من أراضي الدولة (مئات الهكتارات) بالدينار الرمزي عندما كان وزيرا لأملاك الدولة
وفي مساء نفس اليوم بثت الجزيرة مباشر مائدة مستديرة شاركت فيها المنظمات الوطنية وكانت رابطة الكتاب الأحرار ممثلة في شخص الشاعر : الصادق شرف.
وتحدث بعض المتدخلين عن تواصل إحراق أرشيف الإدارات والوزارات والأمن الوطني إلى هذا اليوم لإتلاف الحجج التي تدين المسئولين زمن بن علي عن التجاوزات والجرائم التي ارتكبوها

يوم 22 يناير 2011

شاركت في حوار بالهاتف مباشرة في حصة لقناة حنبعل حول مسارات الثورة وتبعاتها وكذلك شاركت في برنامج حواري باسم رابطة الكتاب الأحرار في الإذاعة الثقافية

يوم 23 يناير 2011

نظمت رابطة الكتاب الأحرار ندوة صحفية في مقرها المؤقت عرضت فيها نشاطها طيلة العشرية الماضية وما تعرضت له من حصار وقمع وكذلك عرّفت بالخطوط العريضة لنشاطها المستقبلي.

وقد غطت العديد التليفزيون هذه الندوة (التلفزة التونسية، وفرنسا 24 وتلفزة انجليزية)

يوم 25 يناير 2011

تأسيس المجلس الوطني لحماية الثورة وضم في المنطلق 14 حزبا و14 جمعية وطنية والقاسم المشترك لها هو مقاومتها لنظام بن علي.

وكان عدد الحاضرين 43 شخصا. واتفقوا على مشروع بيان تأسيسي صادقوا عليه من الغد، بعد نقاش مستفيض (26 يناير 2011) ودعوا إلى توسيع هذا المجلس ببعث فروع له بالجهات يمثلها مندوبون عنها ويهيئ بعد ذلك لمؤتمر وطني تكون مهمته الأولى: الدفاع عن الثورة وذلك " بإزالة مخلفات مؤسسات نظام الاستبداد وإفساح المجال لإرساء نظام ديمقراطي يحمي مجتمعنا من عودة القهر والظلم" ويضيف البيان: " يطالب المجلس الوزير الأول محمد الغنوشي بتقديم استقالته».

وقد ألح الحاضرون على ضرورة تكوين حكومة انتقالية لا تضم أي رمز من رموز الفساد في النظام السابق وأن يقع الاتجاه إلى سن دستور جديد عن طريق مجلس

تأسيسي منتخب

وكانت القوى الممثّلة لجبهة 14 يناير بعد عقدها أول ندوة صحفية لها في مطلع شهر فبراير بقاعة التياترو بالمشتل تمثّل رأس الحربة في الدفاع عن الثورة ومن أجل ذلك نظمت بعيد ذلك أول تجمع جماهيري بعد الثورة في قصر المؤتمرات بالعاصمة وطالبت بأن يصدر رئيس الجمهورية المؤقت مرسوما يعلن فيه عن تأسيس مجلس حماية الثورة وضبط صلاحياته وإعطائه صبغتين اثنتين: رقابية وتقريرية

غير أن محمد الغنوشي وحكومته رفضوا ذلك وقرروا توسيع صلاحيات لجنة بن عاشور للإصلاح السياسي وإلحاق بعض الأحزاب بها وبعض المنظمات وتحديد دورها: فهي لجنة استشارية فقط، وواصل الباجي قائد السبسي هذا الموقف بعد ذلك وقد رفض عدد من الأحزاب والمنظمات الالتحاق بهذا الهيكل المعين والذي وقع كذلك إغراقه بعشرات "الشخصيات الوطنية" المشبوهة لأن فيها من ناشد بن علي وبالخصوص لم نسمع للعشرات منهم أي موقف ولو معتدل من نظام بن علي طيلة حكمه، وكان حزبنا: الحزب الشعبي للحرية والتقدم وكذلك رابطة الكتاب الأحرار ممن رفض الالتحاق بلجنة بن عاشور حتى لا نكون شهداء زور في زمن الثورة

وأخيرا

واصلنا العمل ضمن المجلس الوطني لحماية الثورة، ولكن انفضاض عدد من الأحزاب والجمعيات عنه (اتحاد الشغل، عمادة المحامين، حركة الوطنيين الديمقراطيين، حزب العمل الوطني الديمقراطي، تيار البعث... الخ) في توافق مع توجه حكومة الباجي قائد السبسي، جعل من هذا المجلس هيئة مبتورة وشبه مشلولة وزاد الطين بلة اختلافات شقت صفوف مكونات جبهة 14 يناير عند الاستعداد للحملة الانتخابية للمجلس التأسيسي ورفض جل هذه المكونات لجبهة انتخابية مخيرين الدخول فرادى بقوائمهم على حدة "لاحتساب أصوات مناصريهم ومعرفة وزنهم الشعبي الحقيقي" على حد تعبيرهم... وكانت نتيجة الانتخابات صورة حقيقية لهذا التشتت المرضي. ولم تكن هذه النزعة الاستقلالية الانفرادية تهم فقط مكونات جبهة 14 يناير بل شملت عشرات الأحزاب الحديثة الوسطيّة

التي اتصلنا بها(الحركة الإصلاحية التونسية، الحزب الليبيرالي المغاربي، الاتحاد الشعبي الجمهوري، حزب اليسار الحديث، حزب العمل التونسى، التكتل... الخ) وعلى كل، لقد عشت هذه الفترة الثورية مناضلا، كما كنت منذ عهد بورقيبة وطيلة سنوات حكم بن علي، أقول رأيي بكل صراحة كمواطن تام الحقوق والواجبات، وهي فترة منعشة حقا تنفسنا فيها أوكسجين الحرية بفضل تضحيات الشهداء الذين هم أكرم منا جميعا وتضحيات الجرحى ونضال الصادقين من التونسيين

ثورة شاعر

علالة القنونى

علالة القنونى صوت نقاء وشموخ قادم من أراضي الشمال الغربى التونسى، دفع ضريبة تجذره فى الأرض واللغة والدين، أشاح بوجهه عن النفاق السياسى فكانت الجوائز الأدبية قلادة يراها من وراء زجاج – العطايا المسمومة – لكن رفضه وصمود مواقفه بعيدا عن كل تنمية أو مخطط زاد شعره إبداعاً . فمجموعته الشعرية "يرفض البحر أن يكون جدولاً "وكاف ونون" و" بردة العصر كقصيدة مطولة فى مدح الرسول ـ صلي الله عليه وصلم أثبتت أنه صوت رفض وبقاء وقد جسدها بعد ذلك فى مسرحية شعرية بعنوان " دعوا الطيور تغنى" ذلك الشاعر الصادق والكهل الثائر التقيناه فى بوسالم من ولاية جندوبة فى ربوع نسيها كل من تعاقبوا على السلطة وبعد سنة من الثورة لايزالون مصرين على الحلم والحياة ومتغنين بثوابت الأرض وثبات القيم وفى هدوء يقول الشاعر علالة القنونى:

إذ تأملنا في كلمتي "ثورة وثروة" لا نجد فرقا بينهما إلا في تقديم أو تأخير حرفين (الواو والراء) ذلك أن الكلمتين المكتوبتين من نفس الحرف لهما تقريبا نفس المعني فالثروة غني ورخاء والثورة حماس واندفاع وإصرار علي تغيير السائد إلي ما هو أفضل، وغالبا لا تكون الثروة إلا بثورة لذلك نجد أديبنا الكبير ميخائيل نعيمة يقول : الشباب ثورة وثروة لأن الشباب غالبا ما يكون ثائرا علي ما سبقه لتغيير الحياة كما يراها هو ويحاول دائما التجديد ولكنه يصطدم غالبا بالقديم، الذي يصده عن تحقيق ما يريده فنجد دائما صراعا بين الأجيال السابقة وبين جيل

الشباب، الذي بإصراره وإرادته وتمسكه برؤيته يتوصل إلي التغير وينتصر الجديد دائما على القديم، لذلك لا غرابة أن تكون ثورة تونس ثورة شباب استطاع أن يحقق ما لم نكن نتخيله ففي حين أن ذلك الشباب يوصف بالميوعة يتحول أثناء الثورة إلي أسود مزمجرة في كل مكان تقوض الديكتاتورية وبإيمان وثقة لم نعهدها بتاتا في تونس منذ أن كانت الإنسانية، ذلك أن هذه الثورة كانت شاملة في كل أنحاء تونس وكأننا اتفقنا علي إسقاط عرش بن علي وإجباره علي الهروب ولو تواعد التونسيون واتفقوا مسبقا على ذلك لما توصلوا إلي شيء فسبحان الذي جمعهم علي كلمة واحدة . نعم كانت هناك انتفاضة في تونس منذ عهد الباي وثورة بن عليَّ غذاهم الذي تمرد على الباي لما يعيشه الناس من بؤس وضنك عيش ومن مهانة وجمع حوله الكثير من القبائل لمحاربة الباي، وكان كذلك هناك تمرد في جبال خمير في الشمال الغربي من تونس بولاية جندوبة ذلك أن أهل خمير كانوا يرفضون ان يدفعوا الخراج والضرائب المشطة للباي ويتحدونه لوجودهم في جبال وغابات لا يمكن لجيش الباي أن يصل إليها الا مدحورا كما كانت انتفاضات واضطرابات واحتجاجات هنا وهناك لكنها لم تصل مرة واحدة إلي ما وصلت اليه ثورة 14 يناير حيث اتحد الشعب في كلمة واحدة وإرادة واحدة وهي إسقاط النظام لان الشعب الذي عانى ظلم الباي ثم ظلم الاستعمار الفرنسي كان ينتظر الاستقلال بفارغ الصبر ليحقق حياته الكريمة التي يطمح إليها وليحفظ كرامته فلا يعامل معاملة العبيد لكنه فوجئ باستعمار جديد مع الحبيب بورقيبة: أغنياء يعيشون حياة الترف والمجون وفقراء يزدادون فقرا بل إن بورقيبة بثقافته الغربية عمل بكل ما استطاع من دهاء على ضرب مقومين أساسيين : العروبة والإسلام فجعل من التونسي إنسانا منبتا "لا طريقا قطع ولا ظهرا أبقى" حتّى أصبح التونسي يشعر دائما بالنقص تجاه الغربي الذي جعله بورقيبة مثالا أعلى يحتذى به فلا "علم" ولا "ثقافة" ولا "تطّور" إلاّ في الغرب ولا تخلّف ولا انحطاط ولا فقر إلاّ في الشرق لذلك لم تكن تونس مع بورقيبة مستقرّة بل كانت هناك اضطرابات، وقد حاولوا قتله منذ بداية حكمه

وتواصلت الاحتجاجات والتململ بعد أن شعر الناس بخيبة الأمل وبعد أن عرفوا أن الرجل مريض بداء العظمة ولعلّ أبرز هذه الاضطرابات ثورة الخبز سنة 1978، حيث اضطر النظام إلى إستعمال السلاح. و ممّا زاد الطين بلّة، هذا الحيف الذي تعيشه تونس في سوء توزيع الثروات ، فقد كانت المناطق الداخلية مهمشة ينظر لها بزدراء بينما يتفاقم الرخاء في المناطق الساحلية فتكاثر الفقر في جندوبة والكاف والقصرين وسيدي بوزيد وقفصة وسليانة حتى وصل الأمر ببعضهم إلى التأسف على خروج فرنسا من تونس وكما قال ابن خلدون "العدل أساس العمران" لم يكن هناك عدل في تونس بل كان هناك حكم مبني على القمع وجلاّدون يسوسون البلاد بالسوط و "ينفّذ أمرهم ويقال ساسه" و حاشية حول الحاكم، شمائلهم الخبث والدهاء والخساسة لذلك لا غرابة من أن يفتّك الحكم من بورقيبة أحد الجهلة الذي لا ثقافة له ولا أدب ولا علم إلاّ علم التجسس والقمع والقتل، أحد الأجلاف الفاسقين سموه زين العابدين الذي واصل سياسة بورقيبة لكن بكل رعونة وقلّة حياء وأصدر بيانا يقول فيه "لا رئاسة مدى الحياة" لكنّه ظلّ يكذب ولا يستحي فيقرأ هذا البيان على أسماع الناس فيضحكون ويتغامزون بل فيهم من يجهر بالقول ساخراً من هذه المهزلة وأنشأ صندوق 26 26 منذ بداية حكمه مدعيا أنّ هذه التبرّعات ستكون لسنة أو سنتين فإذا بتونس تفاجئ بدفع المال إلى زين العابدين كلّ سنة. أموال لا تأكلها نيران، يأخذها هذا السّارق وهو يكذب على النّاس وعندما يجدّد ترشّحه للرئاسة يتظاهر بأنّه يتمنع ويتدلّل ويأمر أعوانه بإجبار النّاس على انتخابه ،ثمّ ترفع اللافتات في كلّ مكان "شكرا يا سيادة الرئيس" حبّا واعترافا له بالجميل لأنه تفضّل بالبقاء رئيسا في حين أن التمثيلية الرديئة التي كان يلعبها كانت مقززة إلى درجة الغثيان

و قد تفاقم الغضب خاصّة مع حوادث الحوض المنجمي وأصبح النّاس منذ إقامة المؤتمر العالمي للإعلاميين في تونس الذي استدعى فيه صهاينة وتم الترحيب بهم وزاروا الغريبة بجربة مقرّ الجالية اليهودية ، تفاقم الغضب ووقع التنديد بذلك بكل

شدّة 'خاصّة من طرف نقابة التعليم التي واجهت هذا التحدّي لمشاعر التونسيين باضراب عام وقبل سقوط النظام نفاجأ على الفايسبوك بالجزيرة تبث حفلة أقيمت بجربة شارك فيها مطربون تونسيون كانوا يغنون ويصرخون بأعلى أصواتهم "يحيا بن علي يحيا ناتينياهو" وقد كنا ننتظر من الرئيس زين العابدين استدعاء هؤلاء المطربين ومحاسبتهم على ولائهم للصهيونية لكنّه لم يحرّك ساكنا ممّا يدلّ على أنّه كان موافقا على تورطهم بل استنعج الشعب (وإن كان يعلم بذلك)إنّ رئيسنا أحد أعوان الصهيونية وإنّه وإن كان عميلا للإمبريالية فهو كذلك بيدق من بيادق نتنياهو، فأصبح النّاس لا يخفون تمردهم ولا يهمهم ما سيقع لهم فقد سمعت عدّة مرّات من يشتمه بأعلى صوته متحديا أجهزة قمعه ومضحيا بنفسه في سبيل كلمة الحق. إذن فالثورة في تونس وإن كانت خافتة تظهر حينا وتختفي أحيانا فهي كالنار الكامنة في الحجارة وقد واكب الشعب منذ عهود قديمة كلّ ما يجري في تونس من أحداث فعندما استسلم الباي للاستعمار هجاه شاعره المفضّل ووصفه بالخائن وختم قصيدته بقوله "تبّت يدا الملعون في الكتب" فقتله الباي وهذا ليس بغريب فأهل الفكر والأدب والعلماء أكثر الناس عرضة للخطر، وفي عهد بورقيبة هناك شعراء كثيرون مناهضون لسياسته وأبرزهم منور صمادح هذا الشاعر المبدع، الذي عبّر عن خيبة أمله في نظام كان ينتظر منه الحرية والرقي والتقدم والاعتزاز بالهوية العربية الإسلامية، فعندما تبين أن صدق القوم كذب وعملهم كبت وقمع

صرخ يقول :

شيئان في بلدي قد خيّبا أملي :-

الصدق في القول والإخلاص في العمل

فكان أن زجّ به في السجن وقضى بقية حياته تعيسا إلى أن مات رحمه الله مختلّ العقل.

و بعد منور صمادح كثرت الأصوات المطالبة بالعدالة الاجتماعية وبالوحدة العربية وبالعقيدة الإسلامية ويضيق المجال لذكر الأسماء والأشعار ولكن لم يغب

الشعر يوما واحداً عن الحياة السياسية لكن اشتد الحصار عليه مع زين العابدين بن علي الذي أصبح يسيطر على الإعلام المكتوب، والمرئي، فلا نسمع إلاّ شعرا فارغا مائعا ولا نقرأ على الصحف والمجلاّت إلاّ التحذلق والتكلّف بينما تحجب عن الأنظار وعن الأسماع القصائد المناضلة وأذكر جيدا أن أول يوم اعتلى فيه زين العابدين السلطة بادرت بإرسال قصيدة أقول فيها:

"مات الملك

يحيا الملك

ملك مليك ممتلك

في ظلمه الشعب هلك"

لكنّ صاحب المجلّة لم ينشرها في وقتها وتركها لمناسبة أخرى وقد ذكرت ذلك بعد الثورة في جريدة "الصريح".

عندما ادعى صديقي الشاعر الحبيب الهمامي أن الشعر غائب عن الثورة، وأن الشعراء هم آخر من تحرك فقدّمت له نماذج شعرية لكثير من الشعراء بين فترة بورقيبة وبن علي كلّها تمهد للثورة، بل وتذكر الثورة وتتنبأ بها لكن الذي يجب أن نعترف به هو أن الثورة فاجأت الجميع، فلا الأحزاب ولا النقابيون ولا الحقوقيون ولا رجال الأدب ولا العلماء ولا الإعلاميون كانوا يتوقعون حدوثها بهذه السرعة المذهلة.

لقد كانت كما قلت ثورة شعب لا ثورة سياسيين كانت أشبه بالنار التي سرت في الهشيم فأتت على كلّ شيء وكالسيل الجارف الذي لا يقف أمامه شيء. أحرق محمد البوعزيزي نفسه فإذا بتونس كلها تشتعل وتتوحّد شعبا واحدا مزمجرا في حركة عجيبة مذهلة من سيدي بوزيد إلى الرقاب إلى الرديف إلى تالة إلى القصرين ثم تنتقل من ولاية إلى ولاية حتى شملت كل الولايات ثم تتجمع تونس برجالها ونسائها يوم 14 يناير في شارع الحبيب بورقيبة وأمام وزير الداخلية غير مبالية بالرصاص، يكشف الرّجال صدورهم وتزمجر النساء وكلّهم بصوت واحد: " dégage » منظر لا ينسى أبداً منظر يجعلك تجهش بالبكاء فرحا والشعب يثأر

لكرامته ٬ لقد قام المخلوع بخطاب إثر اندلاع شرارة الثورة وعوضا أن يقدم حلولا جذرية بادر بالتهديد متوعدا بالتحدي للشعب « بكل حزم « لكن الحزم كان للشعب وكان الانهيار له، فقام بخطاب ثان أشبه بالمهزلة إذ خفض بعض المليمات في ثمن بعض المواد ممّا زاد في كراهية الناس له فقام بخطاب ثالث ظهر فيه مرتجفا كالقصبة في مهب الريح وهو يصرخ :

« لا رئاسة مدى الحياة « «غلطوني « لا رئاسة مدى الحياة» وهو يعد بالإصلاح، لكنّ الناس يضحكون من خوفه وارتجافه وهو يتحول إلى حمل بعدما كان منفتحا كالطبل، يومها عرفت أنه انتهى وأنه يتكلم وهناك من يشهر عليه السلاح، وفعلا بعد ذلك الخطاب غادر تونس مدحورا مخذولا واسترحنا من شرّه ،ويوم 18 يناير كتبت قصيدتي « ثورة الشعب « التي نشرّت في مجلة « الحياة الثقافية» في شهر فبراير علالة رجل من مواليد 1946 لكنه أدمن نكران الذات تحدث عن البلد وعن أعلامها وعن تاريخها، لكنه لم يتحدث عن غصة الشاعر مع بؤس حكومات وبطش أنظمة فمازحناه : أين علالة القنوني من كل ذلك ؟

فحكى عن تجربته الشخصية مع النظامين فقال:

في عهد بورقيبة وأنا صغير مازلت تلميذا حلّ بورقيبة ببوسالم قادما من غار الدماء في وفد كبير وقد كنت مع صديق لي عندما غطى هو وأصحابه المكان، كان غاضبا جدا لأنه عندما ألقى خطابه في غار الدماء قابله الناس لابسين أكياس القمح احتجاجا على الفقر الذي يعيشونه ولم يستطع أن يقنعهم فقد قطعوا خطابه عدّة مرات بالصراخ ، قلت لصديقي بصوت عال: « كان عليه أن يتوخى العدالة «و لم أكد أكمل كلامي حتى أرتمي على رجل ضخم جذبني إليه بقوة وقال لي : « ماذا قلت؟ « فأعدت عليه بالضبط ماكنت أقول ، ألتفت يمينا ويسارا ثم قال لي : ماذا تعمل ؟ قلت : « أنا تلميذ « ويبدو أن الرجل رأف بي فسار بي خطوات إلى الوراء مبتعدا عن ركب بورقيبة ثم صرخ في وجهي : « أذهب ، عد إلى بيتكم «

وعندما كبرت أحببت ذلك الرجل لأنه أنقذني من كارثة كانت مؤكدة .

أمّا الحادثة الثانية مع النظام البورقيبي ففي سنة 1970 عندما خطب بورقيبة في قمة دول عدم الانحياز في الجزائر خطابه الشهير بالفرنسية كنت في ذلك الوقت مدرسا ومن بوسالم ذهبت إلى ضاحية بوعوان حيث يعمل أخي هناك وكنا وقتها في رمضان، فسرت بعد الإفطار إلى مقهى القرية وفيها تلفاز يبث خطاب بورقيبة للمرّة الرابعة فطلبت من النادل أن يغير إلى قناة الجزائر لنتمتع بأغنية نجاة الصغيرة لأنها جديدة وتبث لأول مرة وبدأت أترشف قهوتي وأدخن سيجارتي منسجما مع اللحن فلم أشعر إلاّ وعون الحرس الوطني يقف أمامي قائلا: » كيف تجرأ أن تغير القناة ولا تستمع إلى خطاب الرئيس تعال معي إلى المركز وبدأ في استجوابي فقلت له» إنني لست ضد الخطاب ولكن لكثرة ما سمعته أستطيع أن أعيده عليك كلمة كلمة» فلم يصدقني ولولا لطف الله وتدخل بعض أصدقاء أخي لضاع مستقبلي ولكنت أحد ساكني السجن.

و مع ذلك فقد ازدهرت الثقافة في عهد بورقيبة خاصة مع وزير الثقافة البشير بن سلامة ذلك المفكر الفذ والأديب الباهر الذي قام بإصلاح جذري للقطاع الثقافي وشجّع على حرية التعبير والنشر والعناية بالمبدعين والأخذ بيد الناشئين وقد استدعاني في مكتبه عندما قدمت له مجموعتي الأولى :» يرفض البحر أن يكون جدولا « سنة 1985 واشترى مني أكثر من ألف نسخة وزعت خارج تونس في المراكز الثقافية، مقابلة لن أنساها أبدا لما وجدت في الرجل من دماثة خلق وتواضع لا نجده إلاّ عند أصحاب النفوس النبيلة .

أمّا مع زين العابدين فلم نر إلاّ الزيف منذ بداية الرئاسة فقد بدأ النفاق وانقلب كل البورقبيين فأصبحوا من مؤيدي نظام 7 نوفمبر والمصفقين له، وفي سنة 1988 أثناء مؤتمر اتحاد الكتاب التونسيين الذي صادف أن كان في نفس السنة التي يترشح فيها زين العابدين رسميا رئيسا لتونس (ترشح بلا منافس)، بادرتنا إحدى الأديبات باقتراح أن نزكي مباشرة زين العابدين وأن يرفع كل من يزكي يده فبقيت مشدوها وأنا أرى أكابر أدبائنا يرفعون أيديهم بكل حماس، يومها أتذكر أن خمسة رفضوا

هذه المهزلة وهم المنصف المرزوقي رئيس تونس الحالي والدكتور جلول عزونة والأستاذ الجامعي فتحي القاسمي وأديب من الساحل (لا أستحضر اسمه الآن) وكاتب هذه السطور وقد تعرض الدكتوران إلى أفظع وسائل القمع أما أنا فقد دعيت إلى مركز الشرطة ببوسالم بعد عودتي من تونس ولمّا شعرت بالخطر اغتنمت غفلة الشرطي وذهبت إلى البريد وحرّرت برقية لرئيس اتحاد الكتاب احمّله مسؤولية أي شيء يقع لي في بوسالم فاتصل بوزارة الداخلية وفعلا بعدها لم أتعرض إلى أية مضايقة لكنّني بقيت دائما تحت الرقابة. حتى سقوط زين العابدين.

تابعنا ثورة مصر وكنا سعداء جدّا بنجاحها وأعجبنا أيّما إعجاب بصمود الشعب المصري وأحسسنا أن الثورتين (ثورتا تونس ومصر) ثورة واحدة. إنّ سعادتنا لا توصف ونحن نرى الملايين في ميدان التحرير وبنفس المشاعر صفقنا للانتصار ولكن كنا نحس بأن الثورة قفزت من تونس إلى مصر وتخطّت ليبيا لكن سرعان ما انتقلت إلى ليبيا وإسقطت القذافي، وبعظمة ثورة ليبيا المسلّحة، أصبحت البلدان الثلاثة بلدا واحدا وأصبحت الثورات ثورة واحدة فما أجمل أن تكون الشعوب العربية شعبا واحدا وما أروع أن نتحد ونكون بلدا واحدا والسؤال الذي يفرض نفسه الآن "ما مستقبل الثورات العربية"

كان علالة القنونى يتحدث إلينا بحماسة شاب ثائر وهو يعيد تقليب صفحات تاريخ غطاه الظلم والتعتيم قبل ثورة لن ترتد بالبلاد والعباد إلى الوراء وسرعان ما هدأ وهو يتحدث عن تونس اليوم كحلم تحقق يقول :

بالنسبة لتونس فقد حققت مكاسب سياسية عظيمة فلأول مرة في تاريخ تونس تقع انتخابات نزيهة شفافة على مرأى ومسمع من كل العالم،و لأول مرة يصبح التونسي حرّا ويتخلّص من الخوف ويقول كلمته بصوت عال ويرفع رأسه معتزا بكرامته ولأول مرة في تاريخ الشعب تنشأ الأحزاب والجمعيات بكل حرية .كل هذه مكاسب ثمينة جدّا لا تتاح للشعوب بسهولة لكن الذي نخشاه على الثورة أن الذين فشلوا في الانتخابات والذين تحولوا إلى معارضين يبالغو في الاعتراض

على كل شيء بغية عرقلة الحكومة بالتنديد والتعريض وحشد الناس وحثهم على الاعتصامات، كل هذا من شأنه أن يعود بنا إلى الوراء وتونس اليوم في حاجة إلى كلّ أبنائها ليضعوا اليد في اليد لبنائها من جديد بعدما اعتراها من تخريب من طرف النظام السابق. إننا بمختلف اتجاهاتنا ومختلف آرائنا شعب واحد، لذلك علينا أن نتخلّص من الأنانية ومن الجشع وحب السلطة واغتنام الفرص لنعمل بكل جدّ لننهض بوطننا العزيز، وما أقوله عن تونس بالطبع ينطبق كذلك على ثورة مصر وليبيا،إننا نعيش فترة مخاض عسير ولكنني متفائل لأنني على يقين بنجاح الثورات العربية ولا بدّ لهذا الربيع العربي الذي ملأ أريجه كلّ الدنيا أن يأتيَ بأجمل ثماره .

كيف كتبْتُ الثورة

الدكتورة آمنة الرميلى

الدكتورة آمنة الرميلى صاحبة رواية "جمر وماء" وعديد من المجموعات القصصية آخرها "سيدة العلب" .

فتحت لنا علبة من علب الغضب لنجد فيها فكرا ثائرا ودروسا فى الحياة لم تصرح بها فى مدرجات الجامعة فى زمن المخلوع والان وقد اشتبك الحلم بالواقع اتقد الجمر داخلها فقالت:

لن أتحدّث في هذه الكلمة عن "أيام الجمر" كما يحلو لكثير من مثقفينا ومبدعينا تسميتها، والمقصود بـ"أيام الجمر" تلك الأيام المشتعلة بالموت والحديد والنار التي سبقت 14 يناير 2011 وتلته، فقد كتبت فيها الأقلام ما لذّ وطاب، ورويت فيها الروايات، وتبارز المثقفون فيمن وقف يوم 14 بشارع الحبيب بورقيبة ومن لم يقف، وفي يناير كتب او لم يكتب من كتب حرفا أو قال كلمة قبل 14 يناير كل هذا مواطن سبق أو قضايا لن يثبت دقائقها غير التاريخ حين يكتب بصدق، فحينها سنعرف من كان ضدّ بن علي ومن كان معه، من رفض حكمه بعد حرق البوعزيزي نفسه ومن رفضه طيلة ثلاث وعشرين سنة، من رابط بقلمه وفكره ضدّ التملّق السياسي والتبعية السلطوية المقرفة ومن باع قلمه برخص روحه ووضاعة أحلامه ومتاجرته بما يكتب وما يقول.. كل هذا سيثبته التاريخ عاجلا أو آجلا.. فليتمتّع الممثّلون بأقنعتهم قليلا

ماذا سأكتب؟

سأكتب ما كَتبت، وسأتحدّث فيما تحدّثت فيه بعد 14 يناير، يعني سأعود إلى بعض النصوص التي حبّرتها تحت وطأة تلك الأيام الغريبة وذاك الإحساس الذي تذوّقته مع شعبي بعد هروب المخلوع. ويبدو أنني كتبت كثيرا من الأشياء لا أدري ما قيمتها الفنية ولكنني كتبتها بفرحي بما أنجز الشعب بحركة التاريخ العارمة وبحرارة تلك الأيامَ الغريبة العجيبة، حيث كنت أستيقظ كلّ صباح غير مصدّقة أنّ الشعب قد قلب عرش الجلاّد وأنّ تونس تخلّصت من عائلات الفساد والمافيا السياسية..ما أروع تلك الأيام رغم ما فيها من خوف وضياع ونهب وقتل.. كان الشعب يصنع تاريخه بيده وقلبه وعقله، الشعب بعاطليه ومعطّليه ومثقّفيه وأمّييه ونسائه ورجاله.. الشعب كلّ الشعب يبني ثورته، يكتب تاريخه، في تلك الأيام وما تلاها كتبنا نحن الذين كتبنا، كتبنا بجنون تلك الأيام بما فيها من أحداث وهواجس.. وتسلّقنا بالكتابة لحظاتها التالية صراعات وتكتّلات وولادة أحزاب وظهور تيّارات وسقوط حكومات وظهور أخرى.. كتبنا تمهيدا للانتخابات وكتبنا احتفاء بها وخوضا لغمارها ثم تفاعلا مع نتائجها.. كم من الكتاب والشعراء والنقاد والباحثين والمبدعين عموما شاركوا في العملية الانتخابية تنظيما وإشرافا وفرزا وإعلان نتائج وقفنا من السادسة صباحا حتى ساعات الفجر الأولى.. وعدنا نكتب ونعلّق ونتساءل ونتوقّع

كيف كتبت؟

كتبت تحليلا، وكتبت سردا، وكتبت خاطرة، وكتبت ومضة، وكتبت تعليقا على ما كتبه الآخرون وهكذا.. وليس الغرض هنا استعراض كلّ ما كتبت في هذه السنة الأولى ثورة وإن كان أمر الاستعراض هذا ليس سيّئا

وإنّما الغرض دعوة القرّاء إلى اللقاء بنصوص قد تفتح نافذة صغيرة على ما عجّت به أيّامنا هذه من صنوف الفعل وردود الفعل

السرد

القصة القصيرة.. إنّها فعلا جنس اللحظات الفارقة، النصّ المتواطئ مع قوّة

اللحظة المنفلتة نواجه انفلاتها أو مرورها بالكتابة، هكذا أراه وقد وهبتني الثورة لحظات مفعمة بالوجد والذّهول والحلم والحيرة والخوف والتساؤل كتبت في ضوئها مجموعة من القصص تتقاطع كلّ منها مع حدث أو مشهد أو صورة أو إحساس أو سؤال تأثّث به هذا اليوم أو ذاك من سنة الثورة الأولى، كانت أولى القصص موصولة إلى أوّل مشهد من مشاهد ثورة 14 يناير . مشهد احتراق محمد البوعزيزي يوم 17 ديسمبر 2010، حين رأيت هالة النار تبتلع الجسد الهشّ وتلوي أذرعها حوله بدأت كتابة "آخر لحظات البوعزيزي.. في كف الشمس" ، كتبت شيئا منها في تلك الأيام الأولى وأنهيتها بعد رحيل المخلوع.." جميل أن ندمج إبداعا أدبيا ونحن نسرد تاريخ مرحلة حاسمة. وجميل أن نذكر على طريقتنا بالإبداع فى خضم السياسة، فأقصوصة آمنة الرميلي بوحا مبدع بخلجات مواطن. مرّوا جميعا أمام عينيه، لمحهم من بعيد أطيافا غامضة ولكنّه عرفهم، لم يستطع أن يفتح فيهم عينيه المملوءتين بالشمس، إنّهم هم تتلوّى أطيافهم مع التواءات أذرع الشمس الأرجوانية ويحومون من حوله بلاتوقّف، أخرج يده اليمنى من بين الهالة المشعّة التي كانت تلفّه، ما للشمس اليوم؟ كأنّها تطلع من بين قدميّ، كأنّها تشرق من كفّي، .... تشبّث بوجهها.. احضنيني، احضنيني.. تعلّق بملامحها، أرخى سمعه لصوتها لكن ستار الشمس حال بينهما.. لمَ كلّ هذه الوجوه والأيدي من حولي؟ لمَ يتكاثرون؟ ولم يمتلئ بهم الأفق؟ وهذه الشمس الحمراء تفتكّني منهم. وترفعني على سرير من الأنوار، تحول بيني وبين الوجوه.. ها هي وجوهم تتآكل وتذوب وتنسلّ خيوطها، وقبضة الشمس عنيفة لا فكاك منها، ولكنّ صوتها يبلغني واضحا رغم ستار الضّوء والمرجان.. وقتاشْ ترجع؟.. حاول أن يجيب . كان حلقه جافّا وشفتاه متيبّستين وقلبه ينزّ بالعطش والشّوق.. متى ترجع؟.. متى أرجع؟.. متى يرجع؟ لم تتركه الشّمس يجيب عن السّؤال، كانت تلفّ أذرعها حوله وتحضنه بعنف، وحضنها يفور بآلاف النّجوم، والشّمس جمرة، لم أر جمرة متوهّجة كهذه الجمرة.. تقطّع الصّوت في مسمعه وهو يطير على هدير

الموجة الحمراء.. وقتاش.. ترجع؟.. امتدّت أمامه سهول من الماء والمطر، طار قلبه إلى السّهول الرّقراقة، حاول أن يغسل فيها حرقة الصّفعة المشتعلة على خدّه ولكنّ كفّ الشمس المزهر أطبق عليه في رفق وأخذه إلى بحر الأضواء.. ثم جاءت الاعتصامات الكبرى احتجاجا على حكومة الغنوّشي فكانت القصبة 1والقصبة 2 والقصبة 3.. أمام مشهد الاعتصام في ساحة القصبة وبإملاء من ذاك الإحساس الرهيب بأنّ الشعب قد انخرط فعلا في صنع تاريخه الجديد كتبت «قصّة حبّ في القصبة"، هديّة لصمود الشباب التونسي وروحه العظيمة .

البداية

تـنبّهت متفاجئة إلى أنّها تـفكّر فيه أكثر ممّا ينبغي، أكثر من الثورة، دندنت: ما أحْلى الثورة التونسية تضم الجميع

النهاية

تـنبّهت إلى أنّ أصابعهما تتشابك تلقائيّا حالما تقف إلى جانبه، أو يقف بجانبها في الساحة، يرفعان الشعارات أو يغنّيان نشيد الثورة مع الجموع الغفيرة، يفتتحان يومهما بـ"إذا الشعب يوما أراد الحياة

الحكاية

الاعتصام الثاني.. غلبتها موجة الفرح المتدفقة في شرايينها بعنف قاهر، صرخت: راجعين، والله راجعين

رفعت إليها أمّها عينيها المتعبتين: اشْكون؟

لم تتوقّف عن الصّراخ والقفز: راجعين، راجعين، غدا يكونون هنا

بدا على الأمّ أنّها فهمت: عادت تقرأ كتابها الجديد "حاكمة قرطاج"، واصلت

قراءتها وواصلت هي الصّراخ والقفز، ضربت هواء الغرفة بقبضتها، رسمت علامة النصر: عائدون، عائدون

الاعتصام الأوّل.. مَا أحْلى القعْدة علْ الميَّه ومَا أحْلى الرّبيعْ.. اخترقها الصوت بعنف، ما احلى صوته.. قالت لأختها، رصدت من أين يأتي الصوت.. يا أمّي يا إخوتي لا تحزنوا.. قادها خيط الصوت إلى حيث يقف وسط الأذرع المتشابكة ويغنّي، قويّ العين والصدر: راجع راجع يا بلادي عبر الجبال.. زاحمت الصفوف حتى قابلته، في الصفّ الأوّل أصبحت، طوّف بها الصوت عبر الجبال والبحور وحدود الكون.. يا أمّي يا إخوتي لا تحزنوا، نور الثورة في قلبي ما زال حيْ.. سامحني، صوتك مزيان، قالت بعد حين، وهو يعبر الساحة مع أحد الشباب، عيشك، توقف قليلا: أنت من هنا؟ أجابت أختها: إيه، علاش؟، ضحك أشار إلى صاحبه: جعنا، ولا نعرف من أين نشتري الخبز.. وما بعد ذلك، فسلام، أو كلام، أو وقوف مذهول أمام صوته، أو طعام ساخن تأتي به من البيت وتخصّ به خيمته في غالب الأحيان.. حتّى جاء اليوم الأخير من الاعتصام، شهدت الصراخ والدّماء وغدر الهراوات، فجأة انقلب كلّ شيء، اختنقت الساحة بالخوذات والبنادق ودخان القنابل، تشتّتوا، اقتُلعت خيامهم، تفرّقوا في التواءات المدينة، كانت ترجف بالخوف والألم وراء سارية من سواري الساحة، ما الذي حصل؟ ما الذي حصل؟ لا جواب غير هذه الموجة من العنف تقتلع الساحة بمن فيها، سمعت بعضهم يصرخون: انقلاب، انقلاب، ازدادت التصاقا بالسارية، والأوامر تنهمر حاقدة بذيئة: روّحوا يا أولاد الكلب، يا همّال، لمّوا خمجكم واذهبوا.. عجبت أنّها وسط الفوضى كانت تبحث عنه، هل مات؟ غلبتها الدموع.. أين هو؟ على حين غفلة رأته يشقّ الساحة ويمسح الدم من على وجهه، جرت من مخبئها إليه، لم تعد تبالي، ضربوك؟ اختلطت دموعه بدمائه: راجْعين والله راجْعين وحين احتدّ الصراع بين الأحزاب وتبارى الناس في حبّ تونس كانت قصة "حكاية مثلية حديثة" رأيت فيها الخضراء رحما ولد الجميع وحضنا يحوي الجميع.." من تحت الشجرة الوارفة تراقبهم، يأتون زرافات، يأتون أزواجا،

أفرادا، يزحفون، يمشون، يهرولون أحيانا، يطيرون طيرانا إليها.. أحبّكم ..
ترمي بعينيها إليهم، تلقط بالضّوء المشعّ من حدقتيها الخضراوين أشكالهم وظلالهم، أجسادهم، رؤوسهم وأرجلهم، يلاعب ضوء الحدقة الخضراء الهامات الضّخمة أو المتناهية في الصّغر لا تكاد ترى.. تراهم جميعا، تمرّر خيوط الضّوء على أعناقهم ووجوههم، تغلغله في رؤوسهم وأطرافهم، تنشق من بعيد روائحهم.. أحبّكم من تحت الشجرة الوارفة تتفتّح عيون قلبها.. السّاعة يصلون، يمرّغون بالظلّ أنفاسهم، يمدّون عيونهم وأكفّهم وقلوبهم، يضعون كلّ شيء بين يديها، تلمس قلوبهم واحدا واحدا.. ترتعش قلوبهم تحت لمس أصابعها.. هذا موسم اللقاء، ها هم يأتون زرافات، يأتون أزواجا، أفرادا.. ترقبهم وهم يصعدون ناحيتها، يدورون مع المسالك الوعرة، يحاورون وعورة الجبل بالأظافر والمخالب والأسنان، يتقاتلون، يتزاحمون، يأخذون بأيدي بعضهم بعضا، يأكلون أحيانا لحم بعضهم أمام معابر الجبل.. كلّ يريد أن يصل إليّ قبل الآخر.. أحبّكم..» للشهداء كتبت "القاتل"، وتحدّثت عنهم من خلال فوهة البندقية التي صوّبها القتلة نحو صدورهم.. " صدْر الولد كان شهيّا، كان شهيّا صدر الولد.. مستفزّا كان، تحت مريوله المخطّط المتواضع، اللعنة!.. ما الذي جعلني أنظر إلى صدره؟ منذ الأمس جاءت التعليمات.. سنضرب .. نظرت إلى سلاحي على جنبي، أحسست أنّني أقف على رأس الهاوية.. القانون هو القانون، امتدّت يدي إلى السّلاح، لمسته، ملأت به كفّي، سنضرب.. سمعنا كلّنا كلمة بكلّ حزم، بكلّ حزم.. "، للصّفوف الأماميّة قنابل الدّموع السّائلة والخرطوش لي، ووراءهم سأكون، بعيدا عن أعين الهواتف الجوّالة، وسلاحي أملس، لامع السّواد، لا أشبع من النّظر إلى نور سواده، قلت: ولكن سيّدي... عبس: سنضرب، ألم تسمع التّعليمات؟ ضربت التحيّة، لا أحد يراك
ضربت التحيّة ثانية وجسدي قبضة من التوتّر، كلّ هذه الأيّام الكلبة وجسد يقبضه من التوتّر.. رأيتهم مختنقين، ورأيتهم مجروحين، ورأيتهم يسقطون تحت قوّة الرّصاص المطّاطيّ وقد يقومون أو لا يقومون.. رأيتهم مرفوسين تحت أقدام الأعوان..

والله يملكون سبع أرواح.. سنضرب قال، وكيف أبتعد عن عيون الهواتف الجوّالة؟ لكأنّ الأرض مزروعة بها وكذلك السّماء، العمى!.. كيف تتركونهم يلتقطون مثل تلك الصّور؟ أين عيونكم؟ العمى والصمى!.. تريدون أن يحرقوني في القصر أو يذبحوني في الدّاخليّة؟ زيدوا من القوّة.. كلّ شيء تحت أيديكم، ماذا نفعل بكم؟ شرذمة من الفروخ حيّرتكم؟ أنتم رجال؟؟ يحترق دماغي، أوزّع الأوامر بكلّ ما فيّ من غلّ عليهم، يطلعون علينا كالجراد.. أمواجا، أمواجا.. سنضرب، وصلت التّعليمات.. الله غالب، نظرت إلى سلاحي يغفو في غمده الجلدي.. على جنبي الأيمن، في متناول اليد، التصقت بزاوية الرّكن المواجه لفم هذا الشارع المنحدر، بلغتنا التقارير.

منذ حين أنّهم يتجمّعون في ساحة الحيّ الدّاخلية.. وجهتهم الشارع الرّئيسي ومركز الأمن بالذّات.. في كلّ ما سبق من أيّام وهم يخرّبون البلد، نفد صبرنا، انتهى.. هكذا قال الكبير عابسا، يابسا، متّقد العين والسّيجار، اندفعت أسأل: أنقتل أبناءنا يا سيادة..؟ سحقني بنظرة حمراء، سنقتل أعداء الوطن.. رنّت الكلمة في خاطري، تيقّظت حواسّي.. تعرّقت، ملأتني أبخرة غريبة.. أعداء الوطن؟ ولكنّ الكلمة كانت حاسمة "بكلّ حزم، بكلّ.."، ها هم.. ها هي ضجّتهم تنتشر في الفضاء من حولي وأنا لاصق في هذه الزّاوية، سلاحي قرب يدي، وجسدي قبضة من العرق والأبخرة والرّوائح الكريهة، حماة الحمى.. أعداء الوطن.. سنضرب، نفد صبرنا، نفدت قنابل الدّموع.. وهو بمريوله المخطّط يتقدّم الصّفوف بصدره، تبرز عضلات صدره من تحت خطوط المريول الباهتة، وفي السّماء سحب ورياح وصقيع، من أين يأتي بالحرارة؟ بدأ يقترب، لماذا أراك أنت بالذّات؟ من بين مئات الصّدور البارزة في هذه العشيّة القارسة رأيتك.. هل يختار الصيّاد حمامته من بين الفريق؟ هل يقول هذه دون الأخريات جميعا؟ عيناي على عضلات صدره، وبقعة اللحم الظّاهرة من فتحة المريول تؤكّد جدّة الجسد وعنفوانه، وسلاحي في يدي.. من يكون؟ من هو؟ تلميذ؟ طالب؟ عاطل؟ معلّم؟ تاجر عربة؟ خضّار؟ جزّار؟.. فلا عاش في تونس من خانها، وأنا من

جندها، سلاحي بسواده اللاّمع، وعينا من أدّيت له التحيّة منذ حين، وكلمة السرّ، وشرائط القبّعة والكتفين.. ولا عاش من ليس من جندها.. نفّذ التّعليمات واحتفالا بهزيمة القتلة وهروب كبيرهم كتبت "كم نمت"، تكلّم فيها أحد المأجورين ليصف قوة القمع وجبروته السلطة قبل أن ينهار عرش بن علي وأتباعه ..» ما هذا الهراء؟ ماذا يقول هؤلاء الكلاب؟ ماذا يفعلون؟ وكيف يتركونهم يفعلون ما يفعلون؟ لمَ لا يعودون إلى جحورهم؟ كم نمتُ؟ كم نمت حتى يحصل ما يحصل؟ وأين أنتم؟ أين العصيّ والهراوات وصرخات الرّجال؟ أين اختفيتم؟ لم تمرّ علينا أيّام كهذه الأيّام، فمتى تنتهي؟ متى ينتهي كلّ هذا؟ وكم نمتُ؟ كم نمت؟ ولكنّ المذيع كان ينبح منذ الصّباح الباكر: هرب.. هرب.. «المعلّم" لا يهرب، سيدنا لا يهرب، لا يتركنا ويمشي هكذا، كأنّنا لم نكن أو لم يكن هو شيئا.. ولكنّني لم أنم طويلا، أنا أذكر، عدت مهدودا، مهدودا.. ثلاث ليال بأيّامها لا نوم فيها، ولا توقّف، ولا أكل تقريبا..

نأكل اللقمة ما بين هجمة وأخرى، ما بين ضربة وأخرى، ما بين أمر وأمر..

أيّام لا شيء فيها غير العصيّ والهراوات وأيدي الفئوس وقطع الكاوتشوك، وهم كالكلاب المسعورة، لا يفلّ فيهم حديد ولا رصاص، فكيف يهرب بعد كلّ هذا، كيف يتركنا وقد حميناه بأرواحنا وأجسادنا وأنفاسنا؟ منذ شهر تقريبا ونحن على هذا المعدّل، تأتي الأوامر.. اخرجوا، انتشروا، هبّوا،لا ترحموا أحدا، حيّ ....، شارع ....، حومة ....، سوق ... ونحن نجري في كلّ اتّجاه كالمجانين، الحمد لله أنّ الحال شتاء، فكيف يقولون إنّه هرب؟

...ولعلّ أكثر الظواهر التي شغلتني وشغّلت قلمي هي ظاهرة التشدّد الديني التي كنّا نظنّ نحن التونسيين أنّه لا مكان لها في تونس الاعتدال والحداثة والتحضّر، وفيها كتبت ثلاث قصص، أولاها "ذبحتُ.. سيّدتي كتبتها حين مدّ بعض التونسيين السّيوف والسّكاكين في الشوارع ودعوا إلى القتل و"الذبح" و"التهجير"، وحين خبّت فتيات تونس في السواد الكامل وحين اقتحمت

.. سأقول كلّ شيء، يجب أن أقول.. ما سمعته أقوى من يمين الشّرف.. تيقّظتُ، توتّرتُ تماما أمام جدّيتها العابسة.. عمره أربع وعشرون سنة.. أربع وعشرون سنة وبضعة أيّام.. وفي عينيه شيخوخة وظلام، أطنان من الحزن.. لو رأيت عينيه.. حينما جلس أمامي متحفّظا، منطويا مرتبكا بحثتُ عن عينيه، هكذا أبدأ عادة، وعادة ما يهربون بأعينهم عنّي، ولكنّه منذ دخل.. هل تصدّقين؟ هرب بعينيه إليّ.. رماهما ناحيتي ولم يأخذهما، وحكى..حكى..قال دعيني أقول كلّ ما عندي يا سيّدتي.. لا تقاطعيني.. ضحكتُ أملا في فكّ عقدة وجهها؛ لذلك قلت منذ حين لا تقاطعيني؟ ازدادت ملامحها انعقادا..اششششت!! وضعت يدي على فمي في وعد قاطع بالصّمت.. يا سيّدتي.. اسمعيني.. فقط اسمعيني، أنا أسمعك قلت، وضع رأسه بين كفّيه وضغط وفي عينيه المفتوحتين في عينيّ أشياء ما رأيتها في عين قبله.. ضغط رأسه بعنف، سالت دموعه.. أريد أن يخرج هذا الصّفير من رأسي، هذا الصّفير هل يمكن أن تخرجيه من رأسي؟.. ابتسمت له.. دعني أسمعه أوّلا وسنخرجه بعد ذلك، واصل الضّغط.. تحرّكت أصابعه بعنف على جانبي رأسه.. بهتّ لكمّ الدّموع النّازلة من حدقتيه الواسعتين.. لكأنّه يعصر إسفنجة في دماغه.. أخرجي هذا الصّفير من رأسي أرجوك..أخرجيه يا دكتورة قولي إنّه سيخرج من رأسي.. بالله، بربّك، قولي إنّه سيرحل، هل يمكن؟

.بدأ صدره يهتزّ وهو يشهق.. منذ ذبحتُه، منذ أجريت السكّين على رقبته منذ لفظ الهواء بقصبته المقطوعة في شكل صفير حادّ، صفير طار من قصبته التي جززتها بالسكّين منذ حين وسكن رأسي ،، منذ سنتين.. منذ أجريت السكين على رقبته.. سكتت، اشتدّت صفرة وجهها.. لم أصدّقه، لم أصدّق ما سمعت.. قلت في نفسي كأنّه يعاني من انفصام.. بدت لي كالميتة، سارعت إلى ممازحتها، طلع ولد أمّه؟ من أولئك الذين يتأزّمون إذا ما ذبحوا خروفا أو رأوه يُذبح؟؟.. وضعت وجهها بين يديها وتنفّست بعمق.. هزّت رأسها بالنفي دون كلام.. امتلأ قلبي بالخوف، سحقتُ كلّ الاحتمالات المفزعة التي غزت رأسي.. اشربي قلت

وأنا أقرّب منها الكوب المملوء بالماء المعدني.. قارورة الماء مع القهوتين دائما، قد نشرب نصفها أو بعضها أو كلّها، بحسب الطّقس وطول الجلسة، رفضتْ.. درّبوني على هذا اليوم، على هذه اللحظة، على هذه السكين طويلا..طالما قال بعضهم: التّونسي ينفّذ؟! مستحيل، هاتوا غيرها إلاّ الكبير، كان يعرف أنني سأنفّذ ذات يوم.. تونسي وسيّد الرّجال.. يهمس أنا أخوك، جزائري، لا فرق بيننا.. التّونسي ينفّذ؟.. هاهاها..! هذا تونسي، يكفي أنّه وصل هنا.. سألته مذهولة هنا.. أين؟ في الجزائر؟ أغمض عينيه.. العراق يا دكتورة، العراق.. امتلأ ذهني بصورهم، في وسائل الإعلام وفي المسلسلات والأفلام.. يحمل لحية؟؟ حدجتني بغضب حقيقي، رفعت يدي معتذرة.. أكملي، أكملي.. ابتلعت ذهولي وعدت أسأله بهدوء وكأنني لا أعرف العراق؟ ماذا تفعل في العراق؟ نظر إليّ باستغراب، لماذا يذهب الناس إلى العراق؟ قلت لأكسر موجة العنف الصّاعدة في عينيه: كانوا يذهبون للعمل في قطاع النّفط.. انفتح فمه في شيء من الاستغراب.. العمل؟ في العراق؟ أكّدت نعم! العمل، وأنت، ماذا تفعل في العراق؟ عبس، أصبحت عيناه مخيفتين ذهبتُ للجهاد.. كم يلزمه من الحصص حتى يتخلّص من هذا اليبس في لهجته؟.. عاد فجأة إلى دموعه وانكساره.. ولكنّني لم أكن أنوي إلاّ الجهاد الحقيقي، في ساحات الحرب، وليس اقتناص بعض الفرائس الضّعيفة.. لم أقاطعه، تركته يتلوّى على الكرسيّ أمامي مغلق العينين.. مشكلتي يا دكتورة الصّفير السّاكن برأسي منذ سنتين.. منذ ذلك الصّباح الذي نفّذتُ فيه.. في الليلة السابقة كدت أقتل أحد عناصر الوحدة، افتكّوه من يديّ هاتين..مدّ يديه أمامه، نظر إليهما مطوّلا كأنّه يكتشفهما.. أدركتُ أنّه يكره يديه، عيناه المملوءتان بالغيظ تقولان ذلك.. سألته في غفلة من صمته الذي طال: هل قتلتَ إنسانا بريئا؟ مجرم! صحت وسط توتّري وانفعالي.. لم تلتفت إليّ ولم تعلّق على صرختي، ضربت الهواء في استهانة.. أووووففففف!! قال، ما معنى بريء؟ لا أحبّ هذه الكلمة، لا يوجد أجنبيّ بريء في أرض العراق يا مدام..

لاحظت أنّه لا يعود إلى ضعفه الطّبيعي إلاّ إذا حدّث عن صفيره المدوّي في رأسه، خارج الصّفير هو يابس، متصلب، جافّ.. يردّد مجموعة من الجمل المتشابهة ويهرب بعينيه منّي.. لم أعد أستطيع أن أكبح جماح خوفي، غذّته ارتعاشات صوتها وهي تصف يبسه وطراوته، عينيه الهاربتين أو المرتميتين في عينيها، بربّك.. قلت، عودي إلى حكاية الصّفير، لم أفهم.. أكلتْ شفتيها مطوّلا.. معناه أنّها لا تريد أن تتكلّم، هكذا تفعل، تأكل كلامها.. تقول آكل كلامي حتى لا يفهمه غيري، ولكنّي أقول ما أريد، تضحك..هكذا أسب الجميع وأشتمهم وأشبع في غربتهم.. أرحي كلامي بين شفتيّ، أهضمه وحدي.. تملّكني شيء من الارتباك.. أحيانا أخافها هذه المرأة الحاوية لآلاف القصص الغريبة، يأتيها الناس محمّلين بحكاياتهم الغريبة، يفرغون حمولتهم عندها، ويتخلّصون من همومهم وضياعهم وأسئلتهم في عيادتها ثم يذهبون موعودين بالشفاء والتحرّر من الحمولة.. طالما قلت لها: أكْذَبُ علم هو الطب النفسي.. تدوّح رأسها ساخرة، تعالي اجلسي أمامي وسترين الكذب من الصّدق تبدو لي أحيانا خطيرة، متفرّدة، لا تشبه أحدا.. تفرغني بنظرة واحدة.. أقاوم خطورتها وجبروتها بالصّوت العالي وكثرة الأسئلة والسّخرية.. إلا اليوم.. لم أجد منفذا إليها، بقيت سادرة في جبروتها وصفرتها.. كان لابد أن أعيده إلى عين العاصفة.. قفزت مباشرة إلى النبع اللاّهب: أنت ذبحت إنسانا.. أجريت على رقبته حدّ السكّين.. غطستُ أكثر في كرة النّار: هل قطعت رأسه تماما أم اكتفيت بقطع أوردته وقصبته الهوائيّة؟ وضع رأسه بين ركبتيه، هكذا فجأة تكوّر على نفسه بعنف كخاتم سليمان.. بين ركبتيه ترك صرخته تطلع من كلّ ضلوعه، رجّت صرخته جدران المكتب، خشيت أن تمرق من خلف الباب الغليظ المبطّن.. تركته لصرخاته المتتالية يتقيّؤها بلا توقّف، بلا توقّف، بلا توقّف.. لا معنى للكلام قلت لنفسي، لا معنى لأيّة كلمة، ما الحروف في مثل هذه اللحظة؟»
مبدأ المناصفة فى تونس بعد الثورة موضوع للنقاش حاضرا ومستقبلا لأنه لم يطل

جميع المجالات وأيضا حرض على تساؤل هل نطلب الكم ام الكيف؟!

امنة الرميلى تقول : إن مبدأ المناصفة في قوائم الاقتراع لانتخابات المجلس التّأسيسي؟ وهل ننكر أنّ التّصويت قد تمّ بأغلبية ساحقة من الرّجال؟ وقديما حارب الرقَّ الأحرارُ لا العبيدُ.. وهل ننكر أنّ المرسوم قد فاجأ الكثير من التّونسيين بمن في ذلك النّساء أنفسهنّ؟ بل لعل الإجماع عليه قد فاجأ أعضاء الهيئة كذلك، إذ رأينا أنّ المرسوم قد استقبل بإرادة الحياة والشّعارات وحتى بالدّموع.. كلّ ذلك يجعلنا ندرك قيمة المرسوم باعتباره حدثا سياسيّا تاريخيّا، تسجّل به تونس مرّة أخرى تصدّرها لحركة التاريخ التحرّرية وسبقها القانوني والفكري ـ نرجو ذلك ـ في مجال الحداثة والتقدّميّة. ولن أترك المجال هنا لتلك الأسئلة الماكرة: هل لعبت مزايدات الأحزاب بعضها على بعض دورا في تحقيق الإجماع على مرسوم المناصفة؟ هل مثّل المرسوم أداة بيّضت بها بعض الأحزاب مواقفها من المرأة ومن قضيّة المساواة والتحرّر وكرامة الإنسان؟ هل حاولت بعض القوى أن تحشر قوى سياسيّة أخرى في الزّاوية وأن تظهرها بمظهر المعرقل لحركة التطوّر والمفسد لأجواء الثّورة؟ لنترك تلك الأسئلة جانبا ولنواجه المسألة مواجهة مباشرة: هل يتوافّر في تونس اليوم المناخ الانتخابي الملائم لتنفيذ مرسوم المناصفة بين الرّجال والنّساء؟ ما هي استعدادات التّونسيين والتّونسيات لإنجاز هذا المشروع الانتخابي الفذّ؟ ما هي حدود النّجاح والفشل فيه؟ وأقول منذ البداية إنّ أسئلتي لا تتعلّق بالمناخ الأمني أو السّياسي، بالاستعدادات التّنظيمية التّقنية وإنّما ولايهمّني أساسا سوي العقلية التي ستتفاعل مع مبدأ المناصفة قبولا، أو رفضا، أو شكّا، أو إيمانا، أو زينة محافل، أو بناء لمستقبل تونس المثقّفات والعاملات والعاطلات والمعطّلات والإعلاميات والطّالبات والتّلميذات والمدرّسات والطّبيبات والممرّضات وربّات البيوت والمعتصمات في ساحة القصبة 1 ، 2 ، 3.. وعلى رأس هؤلاء جميعا أمّهات الشّهداء، كل هذا يؤكد أنّ المرأة في تونس كانت وقود الثورة الفعلي مع الرّجل

ولكن ما هي العلامات التي يمكن أن نكون دالّة على أنّ الأمر لا يستحقّ كلّ هذه الحماسة؟

العلامة الأولى هل تنشغل المرأة في تونس بالسياسة بذات القوّة التي ينشغل بها الرّجل؟ هل تتناصف المشهد السياسي معه فعلا؟ وبالتالي هل هي مستعدّة لنصف التمثيل في المجلس التّأسيسي؟ هذه أسئلة لابدّ أنّ كثيرا منّا يطرحها إن لم يكن علنا فسرّا أو بين بين.

والجواب عنها أستمدّه من مستويين اثنين يهيمنان
على الحياة اليوميّة في تونس ما بعد الثورة هما واقع الحراك السياسي والإعلامي .

سياسيا

كنت أتمّنى لو أنّني أمتلك إحصائيات دقيقة عن معدّلات الانخراط في الأحزاب ـمثلاـ ما بين الرّجال والنّساء، ولكنّني أعرف أنّ عدد النّساء في مراكز القيادة داخل هذه الأحزاب نادر جدّا، وأعرف أنّ المتكلّمين بأسماء الأحزاب القديمة والجديدة في برنامج "القاموس السّياسي" بالقناة الوطنيّة ـ مثلا ـ كلّهم رجال، بل نعرف جميعا وهذا من أشدّ الدّلالات قوّة على العقلية النصفية في تونس أنّ النّقابيين أنفسهم، الذين يدّعون.. لم يوصلوا المرأة قطّ إلى مركز القيادة رغم نضالاتها الكبرى، وكم من إضراب كان عدد النّساء فيه أكثر من عدد الرّجال.

وأن يطلّ كلّ يوم على الجمهور المتفرّج رجل يتكلّم في السّياسة ويطرح برامج حزبه، ويشارك بخطابه في تصوّر الوضع السياسي والأمني والاقتصادي فإنّ ذلك يضعف لدى الناس حضور المرأة في المشهد السياسي، ويعطي مزيدا من الشكّ في إمكانية أن تمثّلهم في هذا المجال أو ذاك

إعلاميّا

وتعود آمنة الرميلى مما حدث إلي مايحدث وخصوصا فى ميدان الاعلام الذى كان خلف أحلام الشعب وواقعه. وبعد الثورة اتسعت الهوة بينه وبين متطلبات المرحلة وحلم الثوار ما الذي تغيّر في الإعلام الرّسمي؟

في القناة الوطنيّة بضعة برامج ومحاورات جافّة، تطغى عليها اللغة المفاهيمية الموجّهة إلى أقلّيات مختصّة، لا تضع في اعتبارها فئات الشعب الواسعة التي لا تعنيها النّظريات في شيء، وشريط أخبار مازال يعاني من داء التخشّب، والمذيعون هم أنفسهم الذين كانوا يقدّمون نشرة الأخبار حتى يوم 13 يناير ، وقد مرّوا إلى تقديم الإعلام "الثّوري" دون رسكلة ودون جلسات لغويّة ـ نفسية، إن لم تخلّصهم من وضعيتهم الببّغائية فتنقص لديهم على الأقلّ الإحساس بأنّهم يقولون كلاما كاذبا.. والسّؤال هو: إعلام مثل هذا هل بإمكانه أن يخدم متطلّبات مرحلة جديدة بما فيها تفعيل دور المرأة في الحياة السّياسية؟؟

ونظرة سريعة إلى القنوات التونسية العامّة والخاصّة وبالتّحديد إلى البرامج ذات التوجّه السياسي كالمحاورات والملفّات والبرامج الإخباريّة اليوميّة وحتى المقالات الصّحفية تؤكّد أنّ الهيمنة المطلقة فيها للرّجل، ولا أدري ما إذا كان ذلك ناتجا عن محدودية عدد النساء القادرات على ملء الفضاء الإعلامي إلى جانب الرّجل، أم هو متأتّ من اختيارات المؤسّسة الإعلامية في ذاتها، أم أنّ سلطة الإعلام في تونس، الساهرة على تأثيث القنوات والإذاعات والصّحف هي سلطة بيد رجال الإعلام ولا مكان أو مكانة فيها للنّساء. وليس الأمر هنا نوعا من الاستعطاف أو البكائيات السّخيفة وإنّما هو محاولة لرصد حقيقة ودعوة إلى إعادة النّظر في ملامحها إذا كنّا فعلا مؤمنين بمستحقّات التّناصف بين الرّجال والنّساء في تونس ما بعد الثورة.

ضمن هذا الشك في المشهد السياسي التونسي ما بعد 14 يناير 2012، وهذا التخوّف من مستقبل العملية السياسية كتبت "هشاشة العظم السياسية عند التّونسيين"، وقد كتبت المقال حين كان التجاذب قويّا عنيفا بين الأحزاب فيما بينها من ناحية وبين حكومة السبسي والأحزاب من ناحية وبين الشعب والحكومة من ناحية ثالثة

حين نتحدّث عن ثورة 14 يناير 2011 باعتبارها منجزا تاريخيّا فريدا من نوعه في تاريخ التونسيين الحديث فإنّ كلامنا لا يتجاوز بديهة أو مسلّمة إنّ ثورة 14 يناير

استحقاق تاريخيّ لعقود بل لقرون من الصّبر والضّنى والقمع والاستنزاف المستمرّ لعقول التونسيين وأرواحهم وخيراتهم عبر مراحل التاريخ البعيدة والقريبة. وقد كان سلسال المناضلين والمواجهين والرّافضين ـ رغم أنّ من ذكرهم التاريخ أقلّ بقليل ممّن لم يذكرهم ـ طويلا وغزيرا وممتدّا، الكاهنة، علي بن غذاهم، الدّغباجي، الطاهر الحدّاد، الشابي، فرحات حشّاد... فاضل ساسي، قتلى التعذيب في أقبية الدّاخلية، وصولا إلى شهداء ثورة 14 يناير . أولى ملامح الدّاء التي يشترك فيها جميع التونسيين ـ وقد كان هذا من اكتشافات ثورة 14 يناير ـ هي القدرة على الشكّ والتّشكيك. والثورة لحظة تاريخية فارقة، تسقط فيها الأقنعة وتتكشّف الحقائق، وتتحرّر فيها العقول والنّفوس من رقابتها الذّاتية والموضوعية. إنّ التونسيّ فيما نرى وما نقرأ ونسمع يمتلك قدرة هائلة على الشكّ في كلّ شيء، والتّشكيك في كلّ شيء: شكّ الجمهور في الإعلام ـ مهما يحاول أن يكون صادقا ـ وشكّ الإعلاميين في ثقة الجمهور.. هل يقال له كلّ شيء ؟ شكّ القوى السّياسية بعضها في بعض، وإذا ما كان شكّ اليمين واليسار في بعضهما البعض قويّا في تونس ما بعد الثورة فإنّ شكّ اليساريين في بعضهم أقوى وأشدّ .. شكّ التونسي في كلّ ما هو «حكومة" و"حاكم" وسلطة وإدارة، ولئن بدا شكّنا في الحكومات المؤقّتة المتعاقبة مشروعا ومنطقيّا للأسباب التي نعرف فإنّ شكّ التّلميذ في أستاذه، وشكّ الأستاذ في مدير معهده، وشكّ الموظّف في رئيس مؤسّسته بتلك النّسب العالية التي شهدناها يبقى أمرا محيّرا، دالاّ على أنّ التونسي يعاني فعلا من عقدة الشكّ التي ربّتها فيه عقود من انعدام الثقة بينه وبين السّلطة بجميع أشكالها وفي جميع مستوياتها. وصحيح أنّ قوّة الشكّ تأتي من قدرة القائمين على التّشكيك في كلّ ما يتعلّق بالثورة ولكنّ الأصحّ أنّ هشاشة نفس الشاكّ هي ما يسهم في تغوّل المشككين ونجاح خطابهم واختراقهم ذات الشاك بسهولة.

أغرب الأمور فى تونس بل وأطرفها أن المرأة دائما مدار المعارك السياسية زمن الحاجة إلى صوتها الانتخابى ودعمها اللوجستى ولم يتغير الأمر كما أكدت آمنه قائلة: إنه منذ 1930 هناك تيّاران متقابلان كانت المرأة مدار المعركة بينهما آنذاك،

وهي اليوم أيضا وبعد الثورة لا يزال مدار المعركة سواء في ذلك «منقّبة» سوسة أو «متحرّرة إيران». ولكنّ المرأة لم تكن غير علامة من علامات المعركة، إذ يتعلّق الأمر باختلاف في الرّؤية والرّأي وفي المرجعيّات، وفي تصوّر المجتمع التونسي الأفضل، هل هو مجتمع الحداثة والتحرّر والكونية أم هو مجتمع المحافظة والتقليد والانغلاق. ولم تتغيّر أدوات المعركة كثيرا بين هذين التيارين ولا علاماتها وخاصّة علامتها المميّزة "المرأة"، الكائن الحامل لكلّ الرّمزيات الذّكورية عبر التاريخ. وإذا ما أقررنا بوجود هذين التيّارين أقررنا بأنّه يوجد تيّار دينيّ محافظ في تونس ـ متكوّن من رجال ومن نساء خاصّة ـ ينشط ويؤثّر ويسهم في بناء الأجيال ويشكّل العقول وبالتّحديد في قطاع التّعليم حيث يكون التّلميذ في المرحلة الثانويّة خاصّة مهيّأ جسديّا وذهنيّا ونفسيّا للقولبة والانبناء والتّشكّل، ويكون للأستاذ دور جوهريّ في بناء مسالك تفكيره ومرجعياته الإيديولوجية وردود أفعاله الآنية والمستقبلية. ومن هذا التيّار المتشدّد من يشرف على المؤسّسات ويدير المصانع ويشغّل الشّباب وقد لا يبني له قاعة ترفيه، أو مكتبة صغيرة ولكنّه يوفّر له بيت صلاة. ومنه رجال السياسة من ظهر منهم ومن خفي، ومنهم أئمّة المساجد يسبّون على المنابر المرأة السّافرة ويناقشون برامج التّعليم ويدعون إلى أن يحرّم تدريس أبي نواس وبشّار والمعرّي. ويدرك هذا التيّار أنّه يملك أكبر قوّة محرّكة للجماهير قادرة على تعبئتها ورصّ صفوفها وهي الدّين، فنحن مجتمع مسلم، محافظ في كثير من جوانبه، بسيط التّفكير في غالبيته بساطة بنيته الاجتماعية والاقتصادية خاصّة. يعني ذلك أنّ المجتمع التونسي يحمل في داخله ما به يمكن لبعض المحافظين أن يتشدّدوا...»

أختم بمقال كتبته في شكل مقدّمة لكتاب الطاهر الحدّاد "امرأتنا في الشريعة والمجتمع" وقد أعادت نشره دار صامد في سياق الدّفاع عن مكتسبات المرأة في تونس، وقد حاولت أن أجيب فيه عن السؤال: هل ما زلنا نحتاج في تونس إلى تفعيل أفكار الطاهر الحداد المتعلقة بالحرية والمساواة والقانون المدني في وضعية المرأة التونسية، عنوان المقال "امرأتنا في الشريعة والمجتمع..

اليوم وغدا"، ومنه: "كتاب الطاهر الحدّاد "امرأتنا في الشريعة والمجتمع"، الصادر في تونس سنة 1930، هل نحتاج اليوم إلى إعادة نشره؟ يحيل هذا الكتاب إلى فترة فارقة في تاريخ تونس المعاصر، فقد جاء نتيجة معركة فكرية اجتماعية كبرى رسمت ملامح المجتمع التونسي الحديث، وحملت رؤية قوى التقدّم داخله منذ الثلث الأوّل من القرن العشرين ويستمد هذا الكتاب قيمته من حيث إنّه تذكير بالأسس التي انبنى عليها المشروع الحداثي في تونس ورسّخ أسس المعاصرة داخله. وهو المشروع الذي ما زال إلى حدّ اليوم تتهدّده كثير من القوى المضادّة والترسّبات مثلما كان الحال عليه في عصر الحدّاد كتاب "امرأتنا في الشريعة والمجتمع" علامة من علامات الصراع الذي دار ولا يزال بين قوى المحافظة والتقليد وقوى التحرّر والحداثة، بين رؤية ماضوية ترفض أشكال التقدّم والمعاصرة الممكنة ورؤية حداثية تنادي بالتجدّد والتغيّر. وبالعودة إلى أدبيات المعركة التي صاحبت ظهور كتاب «امرأتنا في الشريعة والمجتمع" نجد أنّها تجسّد بالقول وبالفعل الصراع المتجدّد بين القديم وكلّ ما هو جديد، صراع تغذّيه هيمنة الفكر الديني آنذاك، وتصدّيه لكلّ محاولات الانعتاق من تلك الهيمنة. والمقصود بالفكر الديني هو جانبه التنفيذي خاصّة ممثّلا في المؤسسة الفقهية التي كانت تنظّم حياة الفرد والجماعة من خلال مجموع الأحكام الشرعية وما يتفرّع عنها من فتاوى وقوانين هذا بعض مما كتبت في سنة الثورة الأولى، غير الكتابات النقدية الأكاديمية المختصّة، وأقرّ بأنّ الثورة قد وهبتني زخما عارما جعلني أكتب بلا توقّف أحيانا، وأنّها قد نقلتني في كتابتي نقلة نوعية حين فتحت أمام قلمي فضاءات جديدة يأتي على رأسها المقال السياسي، وأغنت عالمي التخيلي بإمكانات أخرى في كتابة القصة أوّلا وهي تهيّئني لكتابة نصوص روائية ما زالت تختمر في ذهني وتتكوّن، فالمجد للثورة وللشعب ولتونس.

بين زرقتين

خالد سليمان

خالد سليمان ناقد مسرحى وكاتب قصاص ومراسل إعلامى يعرف بتونس منذ 15 عاما على الرغم أنه مصرىّ إلا أنه يعرف السّاحة الثقافية التونسية أكثر من بعض التونسيين، كان دائم التردّد على تونس قبل أن يستقرّ فيها، إذ كان يحل ضيفا فى العديد من المناسبات الأدبية والمسرحية والسينمائية. وعندما اندلعت الثورة التونسية كان يراقب ما يحدث عبر الشاشات ومن خلال الاتصال الهاتفى يوميا ببعض الأصدقاء، خصوصا الأديبة فاطمة الشريف التى كانت توافيه بما يحدث داخل الجهات التى زارها. وعندما اندلعت الثورة المصرية كان خالد من ميدان التحرير صوتا إعلاميا ينقل ما يحدث ساعة بساعة إلى أصدقائه فى تونس.

فى خضم أحداث ثورة تونس اتّصل بالأديبة فاطمة الشريف وكانت فى شارع باريس أمام قاعة الفن الرابع فى مظاهرة ورغم الضّجيج كان يرجوها أن تصف له مايحدث بالتفصيل وقال لها باكيا لاتبخلوا عليّ بالأخبار عمّا يحدث ويقول، أنا ممزّق القلب بين شعبين وبلدين لأنّ حبىّ لهما واحد وخوفى عليهما واحد مع عجزي عن الوجود هنا وهناك .

وعاد بعد الثورة المصرية مع زوجته المذيعة التونسية سعيدة الزغبى إلى تونس .

كان خالد سليمان مدمن تجوال فى شوارع العاصمة بين لافايات والحبيب بورقيبة الذي يصرّ التونسيون على تسميته بشارع 14 يناير .

رأيناه وكأنه يبحث عن شيء ما إن استوقفناه فكان وكأنه ينتظر دلوا يسكب فيه

أدران الحلم وتتابعت قطراته قائلا:

بقدر ما كان بياضُ المدينةِ ناصعاً مْن أعلى وَأنَا أُحَاولُ تَفَحّص التّفاصيل الدّقيقة من نافذة الطّائرة محاصرا بين زرقتين ، الْبَحُر والسّماء ، فإنّ الرّؤية كان يكتنفها شيء من الغموض وكثيرُ من الإحساس بالإختناق رغم صفاء الطقس وانخفاض نسبة التلوّث الذّي لا يقارن بالتلوّث الكارثي الذّي يلفّ القاهرة التّي غادرتها منذ ثلاث ساعات وعدّة دقائق متّجها إلى تونس الخضراء. وسألت نفسي كثيرا لماذا أشعر بضيق الصّدر رغم نقاء الهواء ؟ .. لماذا تحاصرني زرقتا البحر والسّماء لهما كنت أجدها في بقاع أخرى غير محدودتين ..، كأنّما قد وضعت لهما حدود هنا ؟..

كان قدومي الأوّل إلى تونس في تسعينيات القرن المنصرم .. فيما كنت أحيا من قبل في عالم الخيال في تونس رسمتها ريشتيٌ (بني هلال وحلفائهم) من جهة و(خليفة الزّناتي) من جهة أخرى ، ثمّ كانت ريشة مدرّس الجغرافيا الذّي يعشق التّرحال. يشاركه في ذلك الكتاب من مختلف المشارب مع لقطات من أفلام سينمائيّة من هنا وهناك حملت بعضها رؤية استشراقيّة مضلّلة وغير واقعيّة .. "كان سبب معظمها، أفلاما تونسيّة".

– تونس الحقيقيّة كانت مختلفة تماماً عن كلّ الصور الكلّيّة والقبليّة فقد كانت الصورة الحقيقيّة بعيدة مخاتلة عصيّة على البوح. لها مفاتيح قد تحيا عمراً على عمرك ومازلت لم تجدها جميعا .. تونس الحقيقيّة أو بالأحرى الفعليّة من وجهة نظري لها عدّة وجوه .. لكن أوّل ما يصادفك هو ما يسمّيه أبناء البلاد " وجه السُّوق " ..

– وجه السّوق هو وجه ناعم رقيق ناعس، صامت حينا وباسم أحيانا سميك للغاية يخفي وراءه الكثير، ينساب وهو يتقرب منك في نعومة لكنّها نعومة الأفاعي التّي تلدغ بلا رحمة وبدم بارد دون أن يطرف لها جفن، وهذا إنتاج طبيعي لنظام بوليسي شمولي ابتلع البلاد في جوفه منذ الاستقلال .. حتى لو كانت النّسخة الأولى منه لها وجه تغلفه الثّقافة والحكمة كنظام " بورقيبة " الذّي كان يعتبر نفسه والد الشّعب وصاحب البلاد يعطي ويمنع .. يحيي ويميت كيفما شاء وأنَّ شاء وإلاّ فماذا

كانت تعني الإغتيالات التّي كان يقوم بها ضد خصومه ورفاق الدّرب الذّين انقلب عليهم بواسطة جلاّديه الذّين يعرفهم كل الشّعب التونسي، ويكفي أن تذكر بعض الأسماء أمام أي مواطن مثل " عبد العزيز الثّعالبي " " صالح بن يوسف " " الصّحبي فرحات " ، " علالة العويتي " " البشير زرق العيون " " حسن بن عبد العزيز " .. ليحدّد ذلك المواطن البسيط أيّهم الجلاد وَمَنْ الضحيّة ..، مَنْ الذّي تآمر عليه " بورقيبة " وانقلب عليه ليتصدّر المشهد وحده ومن الذّي قتله حتّى صبيحة يوم العيد، سابقا في ذلك بعقود وحشيّة الإمبريالية الأمريكيّة عندما نحروا " صدّام حسين " صباح يوم العيد ، وحتّى من قتلهم الفرنسيون يردّد البعض أنّه كانت هناك أيد في الدّاخل تعاونهم وليست بعيدة عن بورقيبة..

لذا فعندما ترى "بورقيبة" ومشروعه يعاد طرحه اليوم بعد الثّورة التونسيّة يجب أن نتوقّف طويلا أمام تلك الدّعوة التّي تشبه "الردّة " على الثورة أو بالأحرى حالة الخصاء السياسي والعقلي والإجتماعي أيضا ،و كأن نظام " بن علي " بكلّ إجرامه وجبروته وقسوته وعمالته أيضا لم يكن امتدادا طبيعيّا لعصر بورقيبة ووريثا له .. لقد كان " زين العابدين بن علي " هو آخر قتلة " بورقيبة " المحترفين الذّي صفّى له خصومه جسديّا منذ السبعينات، والثّمانينيّات حتّى لو كانوا من العمّال أو الطّلاب الأبرياء ...، وحتّى انتهى بتصفية " بورقيبة " ذاته سياسيّا بعد أن انتهى جسديّا وعقليّا بَيْدَ أنّ "الزين بن علي"كان له دور أخطر في التّصفيات الجسديّة السّياسيّة، فقد تواطأ على الزّعماء الفلسطينيين في تونس وخارجها ، كما كانت له علاقات تحوم حولها الشبهات بالنّظامين اللّيبي والإيطالي فضلا عمّا يتردّد عن تجنيده من قبل cia

عندما أرسل في دورة تدريبيّة للولايات المتّحدة ...، وقد «توّج بن علي» عاره الأبدي بالتّصريح الحكومي الإسرائيلي الذّي أكّد على حسرة " إسرائيل " على سقوط " أعظم الدّاعمين لسياستها سرّا زين العابدين بن علي " وهو ما يجعل المرء يتأكّد من أنّ الموساد هي الأصل وأنّ "ابن عليّ " إلى جوار " مبارك " يؤكّد رأيي

الخاص في أنّنا عشنا ومازلنا نعيش حقبة " جواسيس " بدرجة رؤساء جمهوريّات وحكّام بمختلف المسمّيات ..و من المضحك أن يعلم القارئ أنّ ذلك العميل فيما كان يقوم بكلّ خياناته للقضيّة المركزيّة للعرب سرّا كان حزبه الحاكم يوجّه "الدّعوات " لحضور مظاهرات تناصر القضيّة الفلسطينيّة وضد الكيان الصّهيوني والأكثر إضحاكا أنّ بسطاء الشّعب نسوا أنّ بورقيبة كان أوّل المجاهرين بالدعوة إلى الاعتراف بالكيان الصّهيوني وفي طليعتهم، الأمر الذّي يحيلك إلى حالة الفصام القومي التي يمكن للمواطن أن يعانيها ، لكنّ بورقيبة مثله في ذلك مثل السّادات حيث كان موقفهما معلنا .

عودة إلى" وجه السّوق "في تونس ، لم يكن أمامي إلاّ مدخل واحد لهذه الحسناء النّاعمة التّي تسكن القلب رغم كلّ شيء.. ، وكما تسلّلت تونس إليّ فسكنت قلبي كان لابدّ لي من التسلّل إليها عبر عينيها النّاعستين بمساعدة أحد سكّانها المستقرّين منذ دهور تسلّلا ملكيّا ليس أفضل من إتيانها من مأمنها مع الرّيح التّي تسكنها دائما " يتسلّل نحو مخادعها ملك الرّيح المكتوب بأقصى الصّحراء ".•

تتسلّل مع النّسيم العليل أو الرّياح القويّة لا فرق فدروب المدينة العربيّة العتيقة بحواريها وأبوابها قد تكون عصيّة بعض الشّيء ، لكنّ المدينة الأوروبيّة الحديثة لن تستعصي عليك رغم المتاريس والإلكترونيّات التّي تراقب كلّ شيء ...، وما دمت قد نجحت في النّفاذ إلى هذه فلن تصمد أمامك تلك ..

تعود سيرة بني هلال للإلحاح عليّ وأتذكر المقطع الذّي يقول " وما دام بارزت الهلالي ساهل عليّا خليفة " ، ولعلّ رمح "دياب بن غانم الزّغبي " قد نفذ من عين " الزّناتي خليفة " إلى قلب " بن علي "ولكن شتّان بين نبل وكرم محتد الزّناتي وفروسيّته .. ووضاعة " بن علي " وحقارته هو ومن حوله ...، سقط " بن علي " وبعض الصفّ الأوّل ممّن حوله عن سدّة الحكم ما زال بقيّتهم على السّاحة بعد أن تحوّلوا إلى ثوّار يلصقون حتّى أفعالهم بـ "بن علي " ..

كان من حسن طالعي أو من سوءه لا أدري حتّى تاريخه أنني كنت شاهدا على

ثورتين في تونس ومصر ، فقد عاصرت أحداث تونس حتى التّاسع من يناير قبل سقوط "بن علي" بخمسة أيّام ، ثمّ عاصرت ثورة " يناير "في مصر من بدايتها وحتّى ما بعد سقوط "مبارك" وتكشير العسكر عن أنيابهم ، ثمّ عدت إلى تونس في "إبريل" وهذا ما أتاح لي المقارنة بين هذه الأوضاع وتلك ـ تكاد المؤامرات تتطابق في الدّاخل والخارج في تونس ومصر ربما لأنّ هناك قوى وعقولا جهنميّة فاتها رصد الثّورات ولم تستطع منعها .. فلم يعد أمامها إلاّ اختراقها والرّكوب عليها، لكن الاختلافات من وجهة نظري تكمن في عدّة أمور :

أوّلها : اختلاف طبيعة المؤسّستين العسكريّتين في تونس ومصر .. حيث كانت المؤسّسة العسكريّة بعيدة عن سدّة الحكم في تونس ، بينما في مصر كانت دائما على رأسه حتّى لو ارتدت زيّا مدنيّا .

2ـ المؤسّسة العسكريّة المصريّة تغلغلت في كافّة مناحي الحياة بينما كانت في تونس بعيدة بشكل كبير.

التّفاوت الكبير بين قوى الجيشين .. ففي الحالة المصريّة تجد 3ـ جيشا محاربا ولا يمكن التّعاطي معه إلاّ بحساب من أي قوى كانت ولديه يتردد بقوة رفع شعار "لا صوت يعلو فوق صوت المعركة " ، بينما في تونس ليست هناك تهديدات خارجيّة كبيرة ممّا يجعل القوى الضّاربة للجيش ذات إمكانيّات محدودة الأمر الذّي يجعلها ليست العامل الوحيد المرجح في حالة نشوب أي صراع داخلي وإنْ كانت بالطّبع يحسب حسابها ، وقد احترم الشّعب طريقة تعاطيها معه وحمايتها لأفراده من بطش الشّرطة فيما اكتفت هي "حتّى الآن" بدور المراقب عن كثب وحماية الشّرعيّة ..

ـ ثاني هذه العوامل :-

دور النّخبة خاصّة النّخبة المثقّفة المبدعة ..

ـ كانت النّخبة المصريّة منقسمة "ليست بالتّساوي" بين أقليّة لها صوت عال نسبيّا ضدّ الثّورة والثوّار .. وغالبيّة نزلت بالفعل إلى ميدان التّحرير منذ اليوم الأوّل وازداد وجودها يوما بعد يوم قبل سقوط مبارك ..

فيما كانت النّخبة التّونسيّة في الصّفوف الخلفيّة " كما وصفها بعض نجومها " ولم تتبدّل مواقفها إلاّ بعد هروب " بن علي " عشيّة 14 يناير ، وهو ما جعلها فاقدة للمصدقيّة عند قطاع عريض من الشّعب الذّي تعالت عليه فئة ليست بالقليلة من نخبته وبدلاً من الاعتذار له عما مضى فاجأته بعدم احترام خياراته واتهمته " بالجهل والتّخلّف " ممّا أدّى إلى ردّة فعل عكسيّة من قبل الشعب حملت بين طيّاتها اتهامات " التّخوين" لهذا القطاع من النّخبة واعتبارهم "طابورا خامسا " يعمل لحساب قوى أخرى ، وظهرت على لسان أفراد الشّعب مصطلحات مثل " أيتام فرنسا" و" الشّلائكيّة " التّي تعني " الشّباشب " في تحريف ظاهر لمصطلح " اللائكيّة " الذّي يعني " العلمانيّة " .

ثالث هذه العوامل صعود تيّار الإسلام السّياسي :

رغم صعود تيّار الإسلام السّياسي في تونس ثمّ في مصر إلاّ أنّه هناك سبب واحد يشترك فيه التيّاران في تونس ومصر .

وبعد ذلك فالأمر مختلف .. وجه الشّبه الوحيد بين التيّارين من وجهة نظري هو عمل التيّارين على القاعدة العريضة الفقيرة والمهمّشة في ظلّ استقالة الحكومات من دورها الاجتماعي والخدمي في تونس ومصر وتعرّض عدد ليس بالقليل من هذا التيّار للعسف والاضطهاد والسّجن والتّنكيل الشّديد من قبل الدّولة ..

- لكنّنا لا يمكن أن نغفل عاملا مهمّا بالنّسبة للحالة التّونسيّة وهو أنّ الكثير من المظاهر الإسلاميّة التّي تعتبر عاديّة في كافّة الأقطار العربيّة والإسلاميّة ..كانت غير مسموح بها في تونس طوال عهدي " بورقيبة وبن علي " الأمر الذّي كرّس لدى قطاع عريض من الشّعب خطر استهداف هويّته العربيّة الإسلاميّة الأمر الذّي جعله يهب دفاعا عنها .. ظالمة أو مظلومة ،و قد تعامل التيّار الإسلامي الرّئيس في تونس ممثّلا في "حركة النّهضة" وحزبها مع الأمر تعاملا ذكيّا حيث قام بتطوير أو حتّى تبديل خطابه السّابق إلى خطاب أكثر اعتدالا وكان لديه أحيانا شجاعة الاعتذار عن أخطاء الماضي ...،فضلا عن عدم تعاليه نسبيا بعد فوزه في انتخابات

المجلس التّأسيسي رغم الهجوم الحاد عليه، لأنّه يعلم أنّ الشرعيّة أصبحت بين أيدي النّاخبين وهو ما يفتقر إليه الإخوان المسلمون في مصر ومعهم السّلفيون وقد أعلن "حزب النّهضة" بوضوح احترامه لمدنيّة الدّولة وحفاوته بنصائح " أردوغان " وهو ما حدث عكسه من التّيارات المماثلة في مصر حيث خرج أردوغان من مصر مشيّعا بسخطهم حينا ولعناتهم المكتومة أحيانا .

- رابع هذه العوامل :

يبدو الأمر في تونس على مستوى رأس السّلطة ممثّلا في رئيس الجمهوريّة ورئيس المجلس التّأسيسي ورئيس الحكومة أفضل، حيث أن كلّ هؤلاء منتخبون من قبل الشّعب بينما اتّسم الوضع في القاعدة الشعبيّة بتجاذبات سياسيّة كبيرة واستغلال كثير من القوى للمطالب الفئويّة ومشكلات البطالة إلخ ..

- بينما يبدو الوضع المصري من حيث رأس الدّولة .. "المجلس العسكري الحاكم" و"الحكومة" يفتقر إلى الشرعيّة من وجهة نظر قطاع عريض، لكن الوضع القاعدي أكثر تماسكا واتّفاقا فيما يبدو .. لأنّه حتّى بين الفرقاء فهناك مطلب رئيسي يطالب بعودة العسكر إلى ثكناتهم وانتخاب رئيس مدني وأن تبتعد المؤسّسة العسكريّة تماما عن التّدخّل في شؤون الحكم، وهو أمر يبدو حتّى الآن بعيد المنال لكنّه ليس مستحيلا .. ويبقى في كافّة الأحوال وعلى جميع الصّعد مصير الثّورات العربيّة رهنا لمدى صلابة إرادة شعوبنا هنا وهناك بين زرقتين : زرقة طبيعة صافية أو زرقة أورام أحدثتها ضربات من يريدون الانقضاض على الثورات .

الثّورة العارية

عماد الزغلامى

عماد الزغلامى شاعر بالعامية والفصحى، همّش فى عهد المخلوع ومورست ضده أساليب قمعية طالت قوت يومه قبل إبداعه. يحفظ الأطفال قصائده عبر الكورال ويعرفه المواطن التونسى عبر ما ينشر فى الشبكة العنكبوتية فلا أحد تجرّأ على النشر له فى عهد المخلوع. إلا أنه بقي صوتا صارخا ضد النفاق الثقافى والموت السريري للهياكل الثقافية التى لم تسمع بعد بثورة شعب .

يئس عماد الزغلامى من الكبار فى مرحلة صنعها أطفال الحرية. وكى لا يقف منتظرا حلما آخر التحق بالفنان سامى دريز والأديبة فاطمة الشريف ليعمل معهما ومع كل أعضاء جمعية «صدى الطفل» وهى جمعية تطمح إلى غد أفضل وشارك معهم فى حملة دامت نصف عام بعد الثورة تحت عنوان «ضد العنف اللّفظى والمادى لحماية الثورة»

كان جالسا فى مقهى ملاصق لمبنى الإذاعة يائسا محبطا من كل ما يحيط به وما يحاك خارج المقهى ضد إرادة ثورة ألهبت الشعوب، وقال: يلملم البقايا فيه :

المثقـّف هو القاطرة الـّتي تجرّ الآخرين ،وهو الدّافع والمحرّك لهم في عمليّة بناء الحضارات وتخليدها منذ «هيرودوت» وحتّى قبله ،وهو المجسّات الصّادقة الـّتي لا تخطئ في المجتمعات . يتحسّسُ النـّقائص ويشخـّصها وينبّه إليها ويستنهض الهممَ لتقويمها ويؤطـّر عمليّة تغييرها،ثمّ يخلـّدها فتخلـّده.

ولا أدلّ على ذلك من الثـّورة الفرنسيّة الـّتي بدأها الكتـّاب والشـّعراء والمسرحيون

والرسّامون ودفعوا الشّعب نحو تغيير واقعه ومجتمعه فغيّره وأسقط الملَكيّة الإقطاعيّة المتحالفة مع الثّيوقراط ،وقد تركوا للإنسانيّة إرثا عظيما خلّدَ أسماءهم بالمُحصّلة.

وإذا ما اِستقال المُثقفُ من لعب دوره لسبب أو لآخرَ ،فإنّ التّاريخ لا يرحم، ويظلّ يذكر ذلك مدى الدّهر ولا يستحي أو يخجلُ من رفع إصبعه في عيْنيْه موضّحا اتّهامه له بالتّخاذل حين النّهوض، والسّكوت حين، الكلام والتّراجع حين التّقدّم، هذا إذا كان المُثقف مجبرا على اقترافه ،أمّا إذا كان اختيارا واعيا أو غير واع فهنا تكمن مشكلة كبيرة وحقيقيّة ، والتّاريخ لن يدينه فحسب بل تطأه عجلاته بعد مرورها عليه ولن يشفعَ له أيُّ عذر مهما تعذّرَ.

وفي هذا الإطار يتنزّل المثقفون التّونسيّون في عهد رئيس العصابة المخلوع، الّذي استطاعتْ بطانته أن تجذب إليها أعدادا ضخمة منهم .ويمكن تقسيمهم حسب رأيي إلى أربع مجموعات كبرى، أولاها مجموعة الموالاة – وفي هذا المقال سيتمّ التّركيز عليها لضخامة أعدادها ولفداحة ما اقترفتْ في حقّ الثّقافة – وهي الّتي انخرطتْ مع النّظام بكلّ ما أوتيتْ من قوّة وخبث،وباركتْ كلّ اختياراته وجمّلتْ كلّ أفعاله القبيحة ودافعتْ عنه داخل تونس وخارجها، واستفادتْ بالتّالي من هباته وكراسيه في كلّ القطاعات وغنمتْ الشّيء الكثير. وثانيها مجموعة الصّامتين وهي الّتي اتّخذتْ من الصّمت ملجأ ووسيلة تسلم بها من بطش النّظام وابتعدتْ عنه ما استطاعتْ ونامتْ داخل قواقعها في انتظار زمن ما ربّما يأتي وربّما لن يأتيَ، ولم يكن لها دور يذكر في السّياق التّاريخي الثّقافي إلاّ نادرا وعلى اِستحياء. وثالثتها مجموعة الصّدام وهي الّتي تصادمتْ مع السّلطة ومع اختياراتها وهي قليلة العدد وقد دفعتْ باهظا جدّا ثمن تمترسها وانحيازها للثّقافة وللشّعب وكانتْ تنعتها عصابة القصر بالشّرذمة الضّالة والمتعاملين مع السّفارات الأجنبيّة وبكلّ النّعوت الّتي تجعل من أفرادها خونة وخارجين عن الوطنيّة ومستقوين بالأجنبي وحتّى الإرهابيّين. ورابعتها مجموعة المهجر وهي الّتي هاجر أو هرب أفرادها إلى خارج الوطن ووجدوا

متسعا من الحريّة في مجتمعات الغرب الّذي احتضنها ووفّر لها كلّ السّبل لتنتج ثقافة استعملها هذا الغرب نفسه ضدّ المخلوع كلّما أراد أو على الأقلّ ادّخرها لوقت الحاجة .

- قبل الثّورة

كان النّظام السّابق يتشدّق دائما من خلال خطب المخلوع وترديد ببّغاواته مقولاته بتلازم الثّقافة والمسيرة التّنمويّة، ودفع بالمثقّفين أو جلبهم إلى الاعتقاد في ذلك فعلا والانخراط في منظومة الفساد الثّقافي لسبب أو لآخر، فتمّتْ رشوتهم من أجل إنجاز مهمّتهم الّتي تتناسب والدّيكور المعَدّ سلفا لذلك ،ممّا جعل الثّقافة تأخذ صبغة تزيين وتلوين المحافل المناسبتيّة وتنافق المُحْتَفَى به ولا تتجذرُ تاريخيّا في السّياق الحضاري للأمّة بل عاكسته في كثير من المرّات وكانتْ المبشّر «بالعهد الجديد» وإنجازاته الخارقة للعادة. وأضافت على قراراته دائما صبغة الشّرعيّة الحضاريّة. ممّا يُفسّرُ إدانتها الكاملة والهجمة الشّرسة عليها وعلى مريديها بعد سقوط النّظام ، وعدم قدرتها على الصّمود ، بل وأصبح أفرادها يحاولون بأيّ ثمن وبشتّى الوسائل التملّص من ارتباطاتهم السّابقة والتخلّص من ماضيهم الذي أصبح عبئا ثقيلا عليهم. وهو بالتّحديد ما يجعل بناء مُنجَز ثقافيّ وطني صعبًا وعسيرا لكثرة عدد أمثال هؤلاء «المثقّفين» أوّلا ،وتموقعهم في كلّ الميادين ثانيا ،ولتمسّكهم برتق بكارتهم ثالثا وهم يسوقون لنا العذر نفسه بأنّهم كانوا مجبرين ممّا يجعل منهم أضحوكة أمام الشّعب الّذي يعرف مدى خسّتهم ووصوليّتهم.

وقد استغلّ النّظام السّابق الظّروف الاقتصاديّة لمعظمهم وقام بتحويل نظرهم من الثّقافة إلى الحاجات المعيشيّة اليوميّة، وأضاف لها الهاجس الأمنيّ عبر جرعات مقصودة ومتواترة من البوليس السّياسي، وعندما تختلط الجوع والخوف وتضيف لهما الطّمع تصبح التّوليفة كاملة لخضوع كامل . وهذا هو تحويل سياسيّ بامتياز قام به النّظام وكأنّه يقول بأنّ مهامّه الموكلة إليه ليستْ إلاّ أمنيّة انطلاقا، من أنّ

«قائده» رجل أمنيّ عسكريّ لا يهمّه إلاّ أمنه وأمن عصابته . وقد اِنخرط في هذا المفهوم - بوعي ودون وعي — المثقفون التّونسيّون.

(المجموعة الأولى).وعندما يقرّر قائد العصابة أنّ المرحلة تتطلّب وضع الأمن في المرتبة الأولى والاقتصاد الموجّه لخدمة شرذمته في مرتبة ثانية. وفي مرتبة عجلة الاحتياط يضع الثقافة، وفي مرتبة أخيرة حضارة المجتمع فلابدّ له أن يضرب كلّ الآليات الثقافيّة ويعطّلها ويرغمها على الإنخراط بعد ذلك في منظومة الفساد القبيحة. وهو اختيار ممنهجٌ من بطانة أدركتْ بخبثها ودهائها أنّ قائد العصابة لا يفقه شيئا في أيّ شيء وأنّ المصّادفة وحدها الّتي قادته لكرسيّ الرّئاسة. وقد استغلّوا ذلك لينسجوا خيوطا عنكبوتيّة شديدة الكثافة ومترامية الأطراف حول أشباه مثقّفين جعلوا منهم أبواق دعاية لمشروعهم السّياسي والاقتصادي والحضاري . وحرّكوهم بتلك الخيوط من وراء السّتار. وأعتقد جازما أنّ العديد من «المثقّفين» كانوا يعرفون ويدركون ذلك ولكنّهم اِستعذبوا اللّعبة بما أنّهم بالمحصّلة منتفعون مادّيا،وفي كلّ مرّة يقصدون نبع الأموال (وزارة الثّقافة بتسميّاتها العديدة أو رئاسة الجمهوريّة الّتي كانتْ لها ميزانيّة سوداء لا أحد يستطيع معرفة حجمها أو مصادرها أو وجوه إنفاقها ...) يكرعون حسب كفاءتهم الولائيّة أو منتوجهم في تلميع الصّورة المتّسخة والقاتمة للحاكم. ومن كان بعيدا عن دائرة الشّرنقة كان يتلهّف لإعلان ولائه وطاعته وخضوعه حتّى يحظى بالهبات والعطاءات أو المراكز الّتي يستطيع من خلالها أن يسرق الشّعب تحت غطاء الثّقافة . ليس هذا فحسب بل يصبح «نوفمبريّا» أكثر من «النّوفمبريّين» أنفسهم ، ويبدع - لا في مجاله الثّقافي — بل في انبطاحه أكثر واِنكساره أكثرَ وتمجيد مولاه أكثر. وفي هذا السّياق كثرتْ الصّراعات والتّجاذبات ووصلتْ حدّ كتابة التّقارير الأمنيّة إلى البوليس السّياسيّ ، وأصبح الكلّ يكتب عن الكلّ في الخفاء. ويصفه بأبشع الأوصاف. وينعته بأقذع النّعوت ويتسقّط أخباره وتفاصيل حياته ليستغلّها في كتابة هذه التّقارير . وكان البوليس السّياسيّ مدركا لأهميّة هذه المصادر المجّانيّة داخل مجموعة مثقّفي الموالاة وأصبح يعلم عن كلّ

شخص كلّ شيء. وكان يرفع بدوره تقاريره إلى العصابة المرابطة بقصر قرطاج، وعلى ضوئها توزّع الغنيمة ، وعوضا عن أن تزدهر ثقافة الحضارة انحدرتْ إلى أسوء مراتبها، ولذلك لا نجد اليوم أسماء كبيرة - عربيّا وعالميّا - في الشّعر أو الرّواية أو المسرح أو السّينما أو الغناء أو التمثيل أو الصّحافة أو غيرها...

ونتيجة لكلّ هذا طغتْ العشوائيّة على العمل الثّقافي وكثرتْ المعاملات الرّشويّة في مفاصله. فمثلا مديرو المهرجانات الفرجويّة - ويبلغ عددها في تونس أكثر من ثلاثمائة وستّين - أصبحوا يقايضون «الفنّانين» بنسب من خلاص العُروض مقابل برمجتهم ، وانخرط «الفنّانون» في ذلك بل أصبحت قاعدة تعامل عندهم والأحذق منهم من يتحصّل على أكبر عدد من هذه العُروض ، سيما بعد أن أصبح قانون حقوق الملكيّة الفكريّة والأدبيّة حبرا على ورق بعد أن مَلَكَ بعض أفراد العصابة السّوق الموازية لمصادر المنتج الثّقافي ووسائطه، وأصبح السّطو على مؤلّفات الموتى والأحياء - تونسيّا وعربيّا وعالميّا - مرتعا خصبا لا رقيب عليه. وهكذا تدعّمتْ منظومة الفساد وأصبح كلّ إنتاج ثقافيّ معرّض للقرصنة ممّا ضعّف دور الهياكل الخاصّة والشّركات شيئا فشيئا في الإنتاج الثّقافي المرسل أصلا فتخلّتْ عن دورها الّذي كانتْ ستربحه الثّقافة من القطاع الخاصّ على غرار عديد من الدّول العربيّة وكلّ الدّول الغربيّة. وبدأتْ في الإفلاس الواحدة تلو الأخرى وإغلاق أبوابها ، ولم يبق منها سوى البعض الّذي انخرط في القرصنة وعدم الدّفع للضرائب ، أو الّتي أصبح يملكها فرد من العصابة، أو يساهم في رأس مالها، وهي شركات تنهل الأموال من كلّ مكان بقوّة الإجابر وبحراسة القصر والتّعليمات. وبالتّالي منهج النّظام السّابق تهميش القطاعات الثّقافيّة تباعا، جوّع مبدعيها وقنّن الدّخول إلى فوائدها الماديّة وفصّلها على قياس يتحكّم، فيه فسهل عليه احتواؤها وشراء ذمم روّادها .ومن أجل تنفيذ هذا المخطّط الجهنّمي وضع على رأس الوزارة وزيرا شديد التحمّس للحضارة الأمريكيّة وللغرب عموما، موالاته للقصر شديدة لا تهمّه الثّقافة الحضاريّة بقدر ما يهمّه مركزه الّذي أ خذ إليه مباشرة من جامعة العلوم الإنسانيّة

فأثبت كفاءته التّدميريّة والتّهميشيّة وسياسة الاحتواء. وليكتمل المشهد لا بدّ من الرّجوع للماضي السّحيق بديلا للحاضر الآني أو ما قبله قليلا ، فأصبحتْ الحضارة البونيقيّة (نموذج قرطاج) هيّ الطّاغيّة على تاريخ تونس وأصبح مريدها صاحب «كرسيّ بن علي للحضارات» محلّ تبجيل وتكريم وفتحتْ له مساحات وسائل الإعلام على مصراعيها ، وفي كلّ سنة يدعو من يدعوهم للمشاركة في ندواته ومحاضراته بتكلفة باهظة جدّا تُقتطع ممّا كان سيكون للمثقّفين التّونسيّين .

ومع كلّ هذا الفساد كانتْ هناك بعض نقاط الضّوء وتمثلتْ خصوصا في بعض الكتّاب وبعض المسرحيّين وبعض الفرق الموسيقيّة الملتزمة، الّتي تطغى على كلمات أغانيها المباشرتيّة وكأنّها خطب سياسيّة، وهذا مفهوم ففي غياب هامش الحريّة للعارضين وغلق المنافذ في وجوههم تحاول هذه الفرق – أرادتْ ذلك أو لم تردْ – تعويضهم خَطابيّا ، وحتّى هي فقد أسكتوها بعدم التّرخيص لها بأيّ فضاء لإقامة حفلاتها وبوضع مديرين على هذه الفضاءات يدينون بالولاء لعصابة القصر ولا يضعون خيطا في إبرة إلاّ بعد استشارتها ومباركتها ، وكثيرا ما كانوا يضيفون تضييقات أخرى من تلقاء أنفسهم طمعا في منصب أكبر قصد التدرّج في سلّم الوظيفة دون موجب حق ، ولو تسألهم لماذا ، يجيبونك بكلّ بساطة ولكن بصرامة إنّها التّعليمات الفوقيّة ، حتّى أصبحتْ هذه الجملة تجري على كلّ الألسنة وفي كلّ المناصب الصّغيرة والكبيرة وأصبحتْ جواز من يريد إجازة ما لا يُجاز. ولم يكنْ أمام هذه الفرق سوى بعض فضاءات الجامعات والكلّيّات الّتي شيئا فشيئا عطّلوا اتّحاد طلاّبها وأدخلوه في صراعات سياسيّة «خطّيّة» وأغرقوها بهوس «الرّاب» و«الدّيسكو» والميوعة وحرسوها جيّدا بالأمن الجامعي.

أثناء الثّورة

اندلعتْ الثّورة يوم 17 ديسمبر «كانون الأوّل» 2010 وبدأ بركانها بالدّخان والرّماد، واشتعل شيئا فشيئا حتّى طفتْ حممه تلتهم كلّ ما اعترض سبيلها ، وبدأ بعض المثقّفين غير المعروفين يكتبون على استحياء بعض الكلمات الّتي لم تُر لصغرها ولم تُسمَعْ لإنخفاض صوتها ، ولو اعتبرْنا «الفايسبوكيّين» مثقّفين – بالمفهوم التقليديّ للكلمة – فإنّهم الوحيدون الّذين تفاعلوا ثوريّا مع الأحداث وهم الّذين أسقطوا جدار الصّمت السّميك لبنة لبنة. أمّا المثقّفون أو أغلبهم فقد واصلوا تلذّذهم بالموالاة، بل لقد ذهب معظمهم إلى إدانة ما كانوا يسمّونها بأعمال العنف والتّخريب، وانخرط البعض منهم في التّفسير الّذي ساقته عصابة القصر على لسان قائدها بكونهم شرذمة ضالّة تابعة للخارج تزرع الإرهاب بتعليمات جاسدة وحاقدة على منجزات تونس الحضارة. ولكنّ الشّعب البسيط هذه المرّة كان يدرك بطبيعته السّاذجة أنّه لارجعة للوراء منذ سقوط الشّهيد الأوّل برصاص الغدر. وفي الخفاء كان قسم كبير منه يتمنّى زوال الطّاغية وطغمته الفاسدة.

ومع توالي الأيّام ودخول عام 2011 واحتدام الشّوارع التّونسيّة في ولايات سيدي بوزيد والقصرين وقفصة والكاف وصفاقس وبقيّة الولايات الأخرى وأخيرا التحاق تونس العاصمة بدأ المثقّفون الصّامتون والمبتعدون يسترجعون صدى أصواتهم الضّائعة في مهبّ أزيد من عشرين سنة من القمع والتّكميم، ويتدرّبون على نطق كلمة ثورة حرفا بعد حرف ولكن في همس ركيك وكأنّهم أطفال رضع

يتدرّبون على النطق، اقترب يوم 14 يناير كلّما ازدادت أعدادهم ولكن من داخل الجمهورية ومن المناطق الثّائرة. وجاء اليوم الموعود وهرب قائد العصابـــة - دون أن ينتظر أحد ذلك - وعمّ الوجوم والحيرة وليومين أو ثلاثة «سكتتْ شهرزاد عن الكلام المباح» . وحين أيقن كلّ المثقّفين بسقوط هذا القائد - الّذي انكشفتْ سماته الورقيّة بعد أن كان مجرّد ذكر اسمه يثير الخوف والرّهبة ويلهب الأيدي بالتّصفيق - وتأكّدوا جيّدا من عدم رجوعه أصبح كلّ واحد منهم يخشى على مكتسباته. وبسرعة البرق انقلب من ممجّد إلى لاعن لهذا النّظام، وظهر البؤس الفكريّ الحقيقيّ عليهم فلا هم قادرون على تقبّل العزاء ولا هم قادرون على المشاركة في الفرح.

لم يكن للمثقّفين - خاصّة المقيمين في تونس - أيّ دور في ثورة 14 يناير وكلّ مثقّف يزعم غير ذلك كاذب، فلم تواكب أيّام الثّورة والرّصاص سوى بعض أغاني «الرّاب» بليدة التركيب وسوقية الكلمات ومحدودة الجمل الموسيقيّة . ولم تواكب الثّورة أغاني المغنّين ولا موسيقى الموسيقيّين ولا كلمات الشّعراء ولا روايات الرّوائيّين ولا قصص القصّاصين ولا مسرح المسرحيّين ولا أفلام السّينمائيّين ولا رسومات الرسّامين ولا مقالات الصّحفيّين ، فأيّام الثّورة كانتْ عارية من فنونها ومن فنّانيها وبعيدة عن مثقّفيها، قام بها عامّة الشّعب وشباب «الفايسبوك» والعاطلون عن العمل والطبقات الوسطى المضطهدة في لقمة عيشها وفي كرامة يومها دون تأطير من «أنتلجنسيا» الثّقافة، ولم يغنّ لها أحد ولم يمجّدها أحد في أشعاره ولم يرسمها أحد سوى شهدائها وجرحاها ومعطوبيها بدمائهم وثّقوها على اسفلت الشّوارع وتراب السّاحات وأرصفة الغضب الحالمة برجوعها إلى مكانها الطّبيعيّ.

- بعد الثّورة

لا أحد يذكر ان معظم المثقفين كانوا فى الصفوف الخلفية للشعب زمن المخلوع ووقت انطلاقة الثورة وكان معظمهم بوقا داعما لإنجازات المخلوع الوهمية ولكن ما

يؤلم بعض الكتاب الذين همّشهم بن على أنّ التهميش تضاعف وسط مهرجان تلميع الصور وارتداء عباءة المثقف الثورى، حتى أن المنابر الإعلامية والصحفية مازالت تكتفي بأسماء عرفت فى زمن المخلوع .

وعماد الزغلامى واحد من الأصوات التى لم تأخذ حظها لا قبل الثورة ولا بعدها .

وبحسرة وبخجل المثقف يضيف عماد الزغلامى قائلا:

أخجل كثيرا من ذكر بعض التفاصيل الموجعة في خصوص الثقافة والمثقفين التّونسيّين فقد اختلط كلّ شيء بكلّ شيء وانفتحتْ وسائل الإعلام بجميع أصنافها أمام المتحدّثين والمتحذلقين خاصّة المتباكين على زمن اضطهاداتهم الوهميّة وعصر حرمانهم الكاذب وبطولات «دونكشوطيّة» ارتسمتْ في خيالهم المريض، وكان التنصّل من الماضي المثقل «بالقوادة» للنّظام السّابق هاجس الموالين، فاحتلّوا كلّ المنابر التّي استطاعوا الوصول إليها، لا ليعتذروا للشّعب عمّا اقترفوه في حقّه، بل ليلعنوا ويسبّوا فترة «الميّت المسجّى» قبل غسله ودفنه، ومن كان له بعض الحياء منهم سكت على استحياء أو اختفى عن الأنظار على مضض لبضعة أيّام خائفا متوجّسا منتظرا عمّا سيسفر عنه الموقف وإلى أين ستصل الثّورة.

واللافت في الأمر هو الكمّ المطلبي الّذي انفرط في كلّ مناسبة ومن غير مناسبة وفي كلّ مكان كأنّ دم الشّهداء كعكة حلوى لا بدّ من اللّحاق لأخذ جزء منها قصد إظهار حسن النيّة، والحصول على صكّ البراءة. وكان المثقّفون مجموعات لا تبلغ الواحدة عدد الأصابع سُباعا وسُداسا وخُماسا وأقلّ من ذلك يعتصمون في أيّ مكان من مقاهي الشّارع الكبير أو حاناته ، مدافعين بوقاحة العاهر عن ماضيهم النّضالي الكاذب ومتباكين بلوعة الثّكالى عمّا سبّبه لهم النّظام من إقصاء وإبعاد واضطهاد وجائرين كالأسود الهزبريّة بالثّورة. وبالترحّم على الشّهداء.

كنت أعرف المثل القائل «بدموع التّماسيح» ،وبعد الثّورة دخلت على «الأنترنت» لأشاهد هذه الدّموع ،فوجدت أنّ التّمساح حين يمزّق فريسته في حركة دائريّة ويلتهمها تنزل دموعه لا إراديّا في عمليّة كيميائيّة معقّدة فأدركتُ أنّ الوطن

في فترة صعبة جدّا ما بعد الثّورة لا ينقصه إلاّ تماسيح الثّقافة لتكتمل ميلودراما المشهد التّونسيّ.

مضت أكثر من سنة على يوم الفصل وما يلاحظ في الإنتاجات الثّقافيّة رغم كثرتها هو ضحالة محتوياتها - باستثناء بعض الآثار – ويدرك المطّلع عليها بسرعة أنّها طُبختْ على عجل دون أن تعجن أو تخبز أو تختمر، وكلّ صاحب أثر أراد أن يدرك قطار الثّورة قبل فوات الأوان، أو أن يثبت وجوده الزّمني في المحطّة بعد فوات القطار. ولكن هيهات فقد فات القطار، والكلّ يعلم عن الكلّ كل شيء ولكنّه تواطؤ خسيس بمنطق أركبك وتُرْكِبني وأسكت عنك وتسكت عنّي طالما أنّ الحابل اختلط بالنّابل والغدير معكّر، لا ماؤه يصفو ولا قاعه يُرى. والملاحظ أيضا في جلّ العناوين الصّادرة اشتراكها في تقاسم كلمة «ثورة» وحشرها حشرا في جلّ الأحيان وكأنّها الكلمة السّحريّة لتبرئة الذمّة .و أعتقد أنّه قبل محاسبة القنّاصة والقتلة والجلاّدين لا بدّ من محاسبة كتبة ومغنّي ومادحي البلاط

وعصابته، والّذين انتفعوا طويلا من عطاياه على كلّ الأشكال. وبعد ذلك اعتذارهم للشّعب وللحضارة الّتي أغرقوها طويلا في سمومهم. ثمّ التّصالح معهم على أن يصمتوا ويبتعدوا لسنوات، وعلى التّاريخ أن يقرّر بشأنهم. غير أنّ الإرادة السّياسيّة الآن قد قدّمتْ موضوعات أخرى ترى أنّها ذات أولويّة على الثّقافة. ويا أسفي لا تعلم أنّ الثّقافة هي المحرّك الفعلي للحضارة ، إذا صلحتْ صلح الحاضر والقادم وإذا فسدتْ فلكم عبرة في خمسين سنة من الجمهوريّة التّونسيّة الأولى، الّتي لم تعط سوى أسماء قليلة جدّا على المستوى العربي ولم يبلغ أيّ أحد فيها مرتبة العالميّة.

أعتقد أنّ المجتمع التّونسيّ أو أيّ مجتمع قادرٌ على تجميع قوّاه الثّقافيّة بعد تطهيرها من أدران المنفعيّة الإنتهازيّة، وبعد أن ينفض غبار الإبعاد والإقصاء عن مثقّفي الدّاخل في كلّ الولايات المنسيّة والمحرومة، الّتي تعجّ بطاقات رهيبة من الإبداع. وتتوفّر على قدر هائل من الوطنيّة. ويشحذها في اتّجاه إعداد وبناء

أسس ثقافيّة جديدة وتطوير آلياتها الثّوريّة اليوميّة وإيقاظ وطنيّتها بحمايتها ماديّا ومعنويّا لإرساء الاعتزاز بالهويّة ودفع الحريّة نحو توليد وتخليق إبداع خاصّ ونموذج فريد يخرج عن عباءة أوروبّا والعالم ويؤسّس لتونسة الثّقافة، وهذا لا يعني المحليّة الضيّقة بل هو التجذر والتّأسيس ثمّ الإنطلاق نحو الأرحب والأوسع وأعتقد أنّه « لا جدوى منا ستباق المستقبل ».

تراتيل ثورية

راضية الشهايبى

راضية الشهايبى صوت شعرى وإن أقرّ الصمت فإنه أباح الكلام فى دواوين "ما تسرّب من صمتى" و"تراتيل الترحال" و"المسار الرقمى للروح". كان ملاذ راضية الشهايبى منذ 2007 هى (تظاهرة 24 ساعة شعرا) التى أسّستها «كعشّ ضد صقيع». الصمت وضمادة لجروح القهر. ويتواصل إحباطها بعد الثورة لانها لا ترى انّ ثورة الشعب قد امتدّت إلى الفكر لتطهّره فواصلت تراتيل ترحالها فى غوغاء الحاضر هذه المرة تقول:

تثور الـشـــعوب كل قرن أو أكثر. ويثور الشاعر على قصيده كل قصيد فهو المتمرّد على الأشكال البنائية للكتابة والثائر على المألوف والنمطيّ. والثائر حتى على نفسه. فيميل إلى الحزن أكثر من الفرح. وإلى الغربة أكثر من التآلف. لذلك هو حارس اللغة وصوت الوجدان، وأجراس تدقّ لتنذر بالقادم، ممّا يجعله في مواجهة يشوبها عديد الشوائب مع الأنظمة الحاكمة وفي مواجهة مع المدّعين. أنهم حماة الدين، وتجده أيضا في مواجهة مع عائلته إذ هو شخص غريب الأطوار كثير القلق حثيث الحركة إنفعالى، هكذا يرونه ويغيب عنهم. أنه ذو فكر سريع التفاعل مع كل الظواهر والأحداث وسريع البديهة ممتلك لأدوات اللغة القادرة على التعبير الحيني والبليغ. وما أكثر القصائد التي تنبّأت بالثورة التونسية وحتى بالثورات العربية. ومهما يكن فإنّ ثورة الشعب لها مميزات تجعلها تغيّر التاريخ وأحيانا الجغرافيا. لكنّ السؤال المطروح الآن هل الشعب الثائر هو المستفيد من الثورة وهل الشاعر الثائر والمنظّر للثورة مستفيد من الثورة متى صدقت تنبؤاته وكانت الثورة ؟

يثبت التاريخ أن الثورات دوما تقام ليغنم منها من هم خارج صفوف الثوار ولذلك تراهم شيئا فشيئا يعودون بالشعب إلى الممارسات القمعيّة الدكتاتوريّة التي ثارت الجماهير من أجل التخلص منهما. والأمثلة عديدة في مجتمعاتنا العربية خاصة وأول المستهدفين هو المثقّف وخاصة المبدع وتحديدا الكاتب شاعرا كان أو روائيا. ولو أنّ الشاعر مستهدف بأكثر حدّة مادامت كلمته تصل بسرعة وهو الذي يمكنه أن يقرا قصائده حيث شاء. ويمكن حفظها وترديدها. وعبرها تنتقل عديد المفاهيم والحقائق فاستمرّ لذلك الشاعر معرّضا للتهميش وبطريقة منظّمة وباستراتيجية سياسية مبيّته لكل ما يجعله في مكانة اجتماعية لا تمكّنه من تفعيل أفكاره في مجتمعه. وأكثر من ذلك لا تجلب له الاحترام كي لا يكون لمواقفه اهتمام جديّ من طرف الشعب وتداعيات هذه الاستراتيجيات تبدو في كل الحلقة التي يدور فيها الشاعر وهنا أحتار من أي المظالم أبدأ ؟

فلو بدأنا بالمجموعات الشعريّة والتي يطمح كل شاعر لطباعتها وتوزيعها ليطّلع عليها أكثر عدد ممكن من القرآء ولتكون في المتناول الآن ولاحقا في حياته وبعد مماته في المكتبات العمومية الوطنية والجهوية أو في الكتبيات والبيوت. نرى أن الشاعر هنا أمام أمرين إما يسلّم إبداعه لدور النشر مقابل بضع نسخ يهديها للأصدقاء في حين يغنم الناشر هذا الإبداع فيطبع آلاف النسخ المصرّح. به في العقد والغير المصّرح بها ويبيع ويوزّع وكأنّه صاحب المنتوج. أو يضطرّ الشاعر أن يطبع على حسابه الخاص وهذا إن كان قادرا ماديّا على ذلك فتدعمه الوزارة باقتناء عدد من النسخ ثم يتحوّل إلى متسوّل بكتبه يتنقّل بين دور الثقافة علّه يبيع بعض العشرات من النسخ، وأحيانا كثيرة يعود بها.

ثمّ لو نظرنا إلى الكتب المدرسيّة بكل مستوياتها هل تحيّن القصائد المقترحة لتعطي فرصا لأكثر عدد من شعراء البلد ؟ هل تعتمد بالأساس على قصائد شعراء البلد ؟ الحقيقة هنا صادمة ومرّة حيث تعتمد الكتب المدرسية على قصائد في أغلبها هي لشعراء عرب ونحن لسنا ضدّ هذا طبعا. ولكن ليس لدرجة تغييب القصيد

التونسي ويستمرّ الكتاب دون تحيين أو تغيير مهما تغيّرت بنائية القصيد ومهما ظهرت أجيال جديدة من الشعراء. حتّى وإن تغّير الكتاب المدرسي فالاختيارات تظل دون تغيير في معاييرها. ولربّما يخاف تجّار هذه الكتب والمحيطون بهم وكل المتمعّشين ممّن يعتمدون على قصائد الأموات خوفا من مطالبة الأحياء من الشعراء بحقوق تأليفهم إن هم أدرجوا لهم قصائد، وإن كان أغلب الشعراء لا يطالبون بذلك.

إضافة إلى الهمّ الوطني وما يلاحظه الشاعر عبر قربه من مكوّنات مجتمعه من فقْر وبطالة ومرض وعجز وخنق للحريات وخاصة منها السياسية والفوضى الإعلامية والتي تحوّل كبتها السياسي إلى حرية فاجرة في طرح موضوعات تشجّع على العنف والإدمان أكثر مما تحذّر منه والتباعد الكبير بين الطبقات المكونة للمجتمع، ممّا فاقم القهر في القلوب وأدّى إلى ذاك الضغط الذي لا يتبعه سوى الانفجار وكانت الثورة.

الثورة التي وحّدت الصفّ والصوت والمطلب واختصر التنوّع الاجتماعي والثقافي والعقائدي والجهوي وحتى الرياضي في صوت واحد: الشعب يريد. وما كان يريد إلا حرية لكافة الشعب وعملا لكل العاطلين وكرامة لكل التونسيين. كانت وحدة نموذجية في تركيبتها وأهدافها وإصرارها. وشجاعة واستماتة وتعلّقا بالوطن وبالمطالب واعتمادا على الشعب نفسه. فسقط مفهوم القيادة والزّعامة. ولذلك كانت ثورة نموذجية تخطّت عقدة الأب أو الصنم أو الزعيم الأوحد وانتصرت على هؤلاء الزعماء سواء كانوا زعماء طغيان أو زعماء امتصاص دم الكادحين .

كانت راضية الشهايبى تتحدث وكأنها تسكب مابقى فى قدر الغضب من غليان وتضيف:

انتصرت الثورة في هدفها الحيني الذي قدم للعالم مفهوما جديدا وهو أنّ للشعب قوّة لا تقهر وأنه قادر على التخلص من القيادات التي توحد صفوفه عند الانتفاضات المنظمة حين تتوحّد آلام الشعب لكن هل فعلا حدثت ثورة ثقافية إبداعية تتغيّر بها منظومة الثقافة القديمة والتي ركّزت إدارة ثقافية لعرقلة المثقفين وتهميشهم ودفعهم نحو الهرولة بين أروقة الإدارات والمكاتب وإخضاعهم للرّقابة سواء الظاهرة منها

والخافية وما يتبع ذلك من سوء التعامل مع المبدع ودفعه للتوتّر مما يؤثّر سلبا على إبداعه. نفس السياسة التي تمجّد الثقافة المستوردة. ومهما يكن ممثّلها. والكيل بمكيالين حتى في المنح المقدّمة. فالشاعر التونسي لا تفوق منحة أمسيته بضع عشرات من الدنانير، إضافة إلى الظروف البدائية التي يلقي فيها قصائده أحيانا كثيرة لا يتوفر حتى المصدح. فيما يلقى الأجنبي كل التبجيل، مثل النزل الفاخرة والمنحة بالعملة الصعبة وتسليط الأضواء واهتمام الإعلام بأنواعه.

ولا تنتهي طرق التعسّف والتّهميش إلى هذا الحدّ، بل تُضاف إليها تداعيات ما تقوم به بعض الهيئات المكلّفة بتسيير بعض الهياكل الثقافية المبنية على المحسوبيّة والمصلحيّة وعلى التمييز النوعي بين مبدع ومبدعة. مما يزيد المرأة المبدعة معاناة أخرى على معاناتها العائلية والاجتماعية. ورغم ذلك يستمرّ المبدعون خاصة الشعراء مناصرين للجمال حراس لغة مؤمنين بالقيم الكونية وبرسالتهم الإبداعية، ولأجل ذلك يواصلون حراكهم الثقافي دون مقابل مادي ودون دعم من الإدارة المسئولة عن كل ماهو ثقافي. وسيستمرّ اعترافي بالجميل لكل شعراء تونس الذين كانوا يأتون من كل أنحاء الوطن للمشاركة في تظاهرة الـ «24 ساعة شعرا» التي كانت تجمع أكثر من مائة شاعر وناقد ولم تكن تجد إلا دعما بسيطا لا يُمكّــن هيئة التنظيم حتى من دفع منحة للتنقل. ورغم ذلك كان الجميع يهبّ فقط لإعلاء كلمة الشعر وإثبات قيمته وقدرته على استقطاب المتلقّي، في حين كانت بعض المهرجانات تتمتّع بعشرات ولا أبالغ إن قلت مئات الملايين.

إن الواقع الصّعب والحرج للمبدع التونسي يستوجب ثورة ثقافية تغيّر من المنظومة الإدارية. إذ كيف يسيّر الإداري الذي ليس له أي خلفية ثقافية أو إبداعية كلّ ما يتعلّق بالثقافة والإبداع؟ وكيف تعتمد المراكز الثقافية توقيتا موحّدا مع باقي المؤسسات ؟ وعدّة عراقيل أخرى ومسالك وعرة لا بدّ من ثورة لتغييرها وإعادة هيكلة الهياكل، وفتح ملف الدعم والنظر في طرائق منحه. وكذلك ملف الطباعة والنشر ونوعية الملتقيات والتي تتشابه كلها في نمط فعالياتها.

إنّ الثورة الثقافية تستوجبها حالة التشتّت التي كانت وزادت إثر ثورة 14 يناير 2011 حيث انحنى بعض المورّطين في عدة تجاوزات منحى الفتنة بين المبدعين لتحويل وجهة اهتمامهم، فانقسم المبدعون فئات انبنت إمّا على نوعية الكتابة أو على التصنيف العمري، رغم أن المبدع هو خارج منظومة الزمن ولا يقاس إبداعه بعمره البيولوجي. أو على الجهوية أو على اتهامات ببعض الولاءات، ممّا أثّر على المناخ العام للساحة الشعرية في تونس.

كلّ ثورة اجتماعية لا تتبعها ثورة ثقافية فكرية تبقى ثورة عرجاء لا توصل إلى تحقيق أحلام الشعوب التي يقاس تقدّمها ومدنيتها بقيمة المبدع الحقيقي والمثقف فيها. فإن علا مقامه علت. وإن هُمّش هُمّش باقي الشعب

فالثقافة أساس تقدّم الأمم ومرآة تعكس التطوّر الفكري والتحضرّ الاجتماعي. وفي انتظار هذه الثورة الحلم. على كلّ مبدع أن يستمرّ مؤمنا برسالته، صامدا أمام كل ما يعترضه من صعوبات، قريبا من واقع مجتمعه مطالبا بكل حقوقه، رافضا لكلّ أشكال التهميش والتدجين والتدجيل جريئا في كشف بعض ممارسات الهيئات المشرفة على الهياكل الإبداعية .

الثورة والأصوليّة الثقافيّة

عادل بو عقه

عادل بو عقه شاعر من الجنوب الغربى بتونس من مملكة قستيليا التى سماها الرومان توزر. وهى نخلة باسقة شموخا وصبرا إلى جانب كل مدن الجنوب التى طالها نكران الانظمة المتعاقبة والجحود لعطاء أهل الجنوب وربوعهم ، فانطلاق صرخة الرفض من سيدى بوزيد وتوزر وبن قردان وتطاوين وقفصة والقصرين وتاله وسليانه.. وكل المدن التى ترونها نقطة فقط فى خرائطهم ووهم منجزات فى برامجهم .

وعادل بو عقه صاحب ثلاثية الماء: «خدوش الماء» و«للحب رائحة المطر» و «براءة الماء» مجموعات شعرية تبحث عن قطرة رواء فى جنوب انكروا عطاءه وسرقوا خيراته وسيجوا احلامه بسحابة نسيَان لا تمطر غير وهم الانتظار لسنين طويلة. واختصر عادل بوعقه فرحة ما حدث فى قوله «شكرا للشهيد، شكرا للشرارة» ويسترسل فى حديثه كقافلة حب للبلاد والعباد.

... شمسٌ أضاءت الكون وأمدّت هذا القطر الصّغير في حجمه الكبير بطاقاته ورجالاته ، دفئالم نعهده فانغرست الطمأنينة في القلوب والبلاغة في المعنى ليُفْقَهَ القَوْلُ . تلك هي الثّورة التونسيّة الّتي تفجّرتْ بعد سنوات الجمر وبعد تضحيات قدّمها التونسيّون الّذين صابروا وصدقوا بشتّى أطيافهم وحساسيّاتهم سنوات الجمر كانت تتكاثف تؤسس جبلا من الكبت والإحساس بالتشيّئ حدّ القرف ، الإضرابات القطاعيّة دون موافقة المركزيّة النقابيّة ولّدت حالة من القطيعة

بين النقابيين والقيادات. الشيء الذي جعل النقابيين يسمّون الأمين العام للاتّحاد سواء كان السحباني أو جراد " وزير الشغل، الاحتقان بلغ أشدّه ، الضّباب يتكاثف فوق البلاد التي أصبحت رهينة الجشع والطمع من طرف العائلة الحاكمة سيّئة الذكر. ولكن من طرف المستكرشين، الّذين مازالوا إلى حدّ اليوم يمثّلون قطب قوى الردّة في المجتمع ذلك أنّ حالة الفوضى وضبابيّة المشهد والمآب هي الّتي تجعلهم يشعلون نار الأسعار من أجل الاستغناء الفاحش على حساب المواطن البسيط، وعلى حساب الطبقة الوسطى التي ضربها النظام السّابق وفقّرها وجوّعها، لا تطرح التغيير أومحاسبة النظام بل جعل من بعض هذه الطبقة جلاّدين وقتلة ومستكرشين، كانوا أكثر بشاعة في تفقير وتجهيل هذا الشعب. كان السبب الأهمّ لبقاء النظام الفاسد هو قدرته على التغلغل داخل منظومة الطبقة الوسطى وتفكيك أنسجتها وأخلاقها وقيمها وغرس ثقافة الرّبح والأنانيّة والتغوّل ودوس المقدّسات والأخلاق ، ففي كلّ تجمّع سكنيّ يضمّ الطبقة الوسطى لابد أن تجد إمّا قاعة شاي تعمل بها بائعات الهوى ومروّجات " الحشيش " وأغلب الروّاد من فئة شباب دون العشرين، غرس أوّل ثالوث محرّم ألا وهو الجنس .... أمّا الطبقات الفقيرة والمسحوقة فكانت سوقا أهمّ تجارة لهم وهي المخدّرات فهم المروّجون الصغار والمستهلكون أيضا.

إنّه تدمير منهجيّ للأخلاق وللقيم وقد قاد بعض مثقّفينا راية هذا الخراب والتدمير للأسف. أتذكّر أنّه عند نشري كتابي الأوّل "خدوش الماء" قابلت المشرف على البوليس الثقافي وسألني عن قصيد داخل المجموعة ونصحني أن أسحبه لأتحصّل على الإيداع القانوني لكنّني تمسّكت بالنصّ ولم أشأ أن أحذفه. وبعد العديد من المحاولات نشر كتابي أخيرا، أمّا القصيد البطل فكان عنوانه القناديل والمقصلة

قناديل في بعض نهج وشقّة
وليل يخيّم في الأروقة
وفي كلّ بيتٍ فقيرٌ يَجوعُ

وفي كلّ ركنٍ تأسّس خوف ورعبٌ
من العنكبوتَ المرمّل فوق الشظايا
حذار ....حذار
هنا العائدون إلينا
بمقهى وبار
وسيجارة قاتلة
قناديل للراكعين إليهم
ونحن لنا المقصلة

سنوات الجمر طالت بين الإدغام والترميز إلى أن جاءت أحداث الرديّف 2008 تلك التي قسمت ظهر النظام وبيّنت هشاشة البنية الأساسيّة في كلّ شيء أصبح المثقف أكثر جرأة ، يتحدّث بصوت عال في المجالس وفي المقهى وفي البار وفي الحافلة ، لم يعد يكترث وهو الّذي سمع عن معاناة زوجة عدنان الحاجّي وأحسّ أنّه يستطيع المقاومة.

كنت ناشطا في حزب العمل الوطني الديمقراطي وكان هو الأقرب لتكويني العقائدي وهو أحد الأحزاب اليساريّة الّذي ينشط في السرّ إذ قدّم مطلبا للتأشيرة القانونيّة مذ سنة 2005 إلاّ أنّه لم يتحصّل عليها ككلّ القوى الوطنيّة الّتي أرهقتها السريّة. الكلّ كان يبحث عن متنفّس في حين كانت البلاد تغرق والبطالة تتفاقم والوضع الإجتماعي يتأزّم.

عند عودتي سنة 2007 إلى موطني توزر شاركت رفاقي المثقّفين في بلورة مسار جديد لفرع اتّحاد الكتّاب التونسيين وذلك لرغبة داخليّة «كروموزوميّة» في تغيير الشأن العام وجعل الفرع ينأى عن التفرّد بالرّأي وعن الشاعر الأوحد، والمثقف الأوحد، وبحكم علاقاتي بأعضاء الهيئة المديرة ذلّلت الصعوبات وتمكّنا من إنجاز المؤتمر وتواصل العمل وعندما حان موعد المؤتمر، انقلب الكلّ على التفاهمات السّابقة وبدأت الدسائس والسباب وتم المؤتمر ولكن كان باهظ الثمن إذ أنّ من تولّى رئاسته كان محلّ رفض

من العديد من الأصدقاء، وما جعلني أقطع مع هذا الفرع هو خبر زيارة رئيس الفرع المنتخب حديثا للكاتب العام للتجمع الدستوري الديمقراطي بتوزر غداة المؤتمر، وهذا ما رأيت فيه ارتهان فرع الإتحاد للحزب الحاكم وبيعا معلنا للفرع. حتّى الميداني بن صالح رحمه الله عندما كان رئيسا للاتحاد وهو الّذي كانت له علاقات وطيدة برجالات الحكم عهد بن علي كان يميّز بين استقلاليّة الإتّحاد عن الحزب الحاكم ولو معنويّا على الأقلّ. وجلّ اللقاءات السياسيّة كان يحضرها بصفته المناضلة والمبدعة وحين جابهته بهذا أزبد وثار وقال كلاما جارحا لذلك كانت القطيعة. قطيعة مع الرّداءة وقطيعة مع الأميّة. ونأي عن سوء الأخلاق وعن الدسائس وهو ليس بالغريب عنها نظرا لعدّة ظروف ذاتيّة وموضوعيّة. المهمّ تشتّت مثقفو الجريد ، كلّ واحد يحلم بكعكة وهو أقلّهم خلقا وأخلاقا وعلما وتعلّما يمسك بعقارب اتّجاههم دونما دليل.

هذا حال المثقف في توزر أيّاما قبل الثورة وقبل أن تشتعل في سيدي بوزيد حيث اشتعلت الشرارة الأولى وقادت الثورة الطبقة المتوسّطة عبر الإعلام والفيسبوك وتأطير المسيرات النهاريّة. وقد قام مناضلو الإتحاد العام التونسي للشغل بدورهم في تأطير المسيرات في كلّ أنحاء الجمهوريّة وكان الليل للشباب الغاضب : أصحاب الشهادات المعطّلين عن العمل: الطلبة التلاميذ/ البطّالة من دون شهادات/ العمال/ المخمورون / عصابات السرقة كلّها تكاتفت لتصارع أجهزة الأمن فكانت الإرادة هي الغالبة وحان دور المثقف العضوي في السير قدما مع الجماهير. لم يكن المثقف هو من قاد الثورة إلاّ أنه من أطّرها ومازال إلى حدّ اليوم.

العطش يملأ صدر عادل بوعقه فبين القول والقول ينساب القصيد

سأقولُ أنّكَ صُنْتَنِي
وحَفَظْتَ مَاءَ الوَجْهِ... يَا شَعْبِي الكَرِيمْ
وأقُولُ أنّكَ قُدْتَنِي
لِخَلاَصِ روحِي

مِنْ سُجُونِي ...
وأَقُولُ أَنّكَ قِبْلَتِي
لَوْ صُنْتَنِي
لَوَهَبْتُ روحيَ قُبْلَةً
فوْقَ جبينِ شَهيد صَحْوكَ يَا شَعْبِي الكَريمْ.
وأَقُولُ أَنّكَ أَجْملَ زهْرةٍ بيْنَ الحُقُولِ.
وأقولُ أنّكَ نَخْلةٌ
تحْمي عرينَكَ منْ عَدُوٍّ
يقْتَفِي أثَرَ الشّياطينِ الّذين
طردْتهم
وحَرَمْتَهُمْ منْ قُبْلَة الأرْضِ الحنُونِ
... يَا شَعْبِي الكَريمْ.
القائمُونَ على جَدَائلِ شَعْرِ تونُسَ
همْ شَبابُك يا خَضْرَاءُ يا رُوحَ اليَقينِ
وأنْت ..أَنت يَقينهُمْ...
سَتقودُ ثَوْرَتنَا القبائلَ
كلّ القَبَائلِ للْمَرَاتع
تحْتَفِي بِالنَّصْرِ... مَا زِلْنا نُعِدٌّ لاُحْتِفالاَتِ الصّبَايَا
في رُبُوعِكَ يَا وَطَنْ.
فَلْتَسْتَعِدُّوا ولْتُعِدُّوا زينَةَ اليَوْمِ المَجيدِ...
أَيُّهَا الشَّعْبُ الكَريمْ ...

توزر في : 22 فبراير 2011

يصرخ عادل بوعقه شعرا ثم يهدأ قليلا تترابط كلماته كقاطرة ألم ليعبر من

الشعر إلى النثر

السّماء يلفّها الضباب الكثيف ، المظاهرات بدأت تنتشر في كلّ أرجاء الوطن ، المثقفون يلبسون عباءة المواطنة ويشاركون جماهير شعبهم في غضبهم

السّاعة تشير إلى الثامنة وبضع دقائق مسيرة تضمّ شباب الجريد في اليوم العاشر من شهر يناير 2011، أجد نفسي بينهم أصرخ وبالقرب منّي المناضل والحقوقي هشام بوعتور ...صوت الرصّاص يدوّي ورائحة الغازات المسيلة للدموع تنتشر في الفضاء ، الشباب يراوغ ويتفرّق، أجد نفسي قرب المنزل فأسرع إلى الفايسبوك الأرض تشتعل من الشمال إلى الجنوب ، دقّات القلب تتواتر نفس الإحساس الّذي عشته عندما كنت أقود مظاهرات التنديد بالتدخل الإمبريالي في العراق ... شعور بالنخوة وبالخوف تاريخ يعود. مسيرات الحركة الطلاّبيّة تعبر أمامي بسرعة. الفضاء يكتشف أرواحا جديدة راغبة في الانعتاق والتحرّر ..حريّة / حريّة.../ كرامة...... الثالث عشر من فبراير.

تجمع كبير أمام اتّحاد الشغل لمساندة جماهير شعبنا في الوطن وللتنديد بالاجرام، الذي طال العديد من شبابنا الذي عبّر عن توقه للحريّة وللكرامة وبكلّ الوسائل كلّ حسب درجة وعيه .....مهرجان خطابي يوم 12 يناير 2011 رغم الحضور الكثيف لرجال الأمن،حضره العديد من مثقفي الجهة أي من رجالات التعليم، أساتذة ومعلمين وطلبة وتلاميذ ومهمّشين ومعطّلين عن العمل، الكلّ ينادي بالكرامة وبالحريّة ولم يحضر من مبدعي الجهة والمنتمين إلى "اتحاد الكتاب" إلاّ عمر الجملي واللواء عمارة فقط أمّا البقيّة فقد التحقوا بالمسيرات والتجمّعات داخل اتحاد الشغل وكانوا مصحوبين بكاميراتهم لتوثيق المسيرات المطالبة بتصحيح مسار الثورة وللمطالبة بمجلس تأسيسي، كلّ مثقفي توزر المورّطين مع التجمع اللاّدستوري واللاّديمقراطي غابوا عن المشهد بعد تشكيل مجلس حماية الثورة ولم ينخرطوا في أصعب فترة من زمن الثورة وهي مقاومة قوى الردّة اللّي أرادت الركوب على الثورة قد نجحوا في مسعاهم ، أولئك الرّاكبون على دموع الثكالى وألم جرحى الثورة اليوم

يزايدون على الثورة ويكتبون باسم الثوريّة وهما، وفي زمن قريب كانوا ضمن لجان التفكير والتأطير التابعة للجنة التنسيق بالتجمع.

لا تبكني ...
قالتها دمعة عاشق
لمّا تهاوى الغيم فوق الصّدر ...
مثل رصاصة ...
لا لا تبكني...
أنا انبلاجُ الصّبحِ ..عطرُ أريجِيَ
أنا في الحقولِ
فوق نخلٍ بالجريدِ
في زياتين الوسطْ...
في الزُّقاقِ
في تلابيبِ الفراشْ...
في بُرنُسِ الجدِّ...
في عصاهْ.. وهو يتّكِئُ عليَّ .
لا تبكني ...
أنا في تراب الأرض ...أحمل طيبها
أنا رفقَةَ صِبْيَةٍ روُّوا ترابك بالدّمِ
أه دمي
كم أحبُّكَ يا دمي
لمّا انسلَلْتَ فوق أرضِ الجذْبِ
حتّى تَرْتَوي...
برصاصة القنّاص أيضا ترتوي...

بدموع أمّي..
حين تعرف أنّني كنت الشّهيدَ
شعْلةً لاتَنْطَفِي

•••

لاَ...لا تبكني ...
فأنا شهيدك تونس الخضراء
يا أرض الشهادة والجدود
والشباب الثّائر
الآن حطّمنا القيودْ.
لا تبكني ...
بل سرْ بدربي
حاملا علم البلاد
خلف المتاريس الّتي حطّمتها
واحملْ ترابي
نحو قدس الأرض
علّي في سباتي أَرتوي...
لا ..لا تبكني
بلْ اِبْنِ بالصّخر المحطّم
مجد شعبي
وغطّني بابتسامة طفلةٍ في العيدِ
تقبّلُ صورتِي
وتقولُ لولاهُ ما كنّا انتصرنا
وكتبنا سجّلْ أيّها التّاريخُ - ثوْرَةَ شَعْبنَا -
لا..لا تبكني...

سيقدّم الطّفلُ اليتيمُ وَرْدَةً حمراء
لدمِ الشّهيدِ شاكِرًا..
شُكْرًا لهذا الدّم
شكرًا للرّفاقْ
شكرا لمن صاحوا بالمسيرات
وشكرا للثّكالى يلْطُمْنَ الصّدورْ
شكرًا للشّهيد.
شكرا للشّرارةْ
ألف شكرٍ للّذين قاوموا ظلم الطّغاة
فوق أرضِ العرب ثمّ ...ثُمَّ اسْتُشْهِدُوا.
شكرا لأرضٍ تلدِ الطّغاةَ
ثمّ تأتي بطفلِها الشعبيّ يرميهم حجارة من لهيبْ
من صراخ صبيّةٍ
كسروا بكارتها الخفافيش الصّغار ...
كم أحبّكَ
يا شعْبُ ... إنّي أُحبُّكَ.
فوق السّماء وتحتها
بعد الجميع وقبلهمْ
يا شعبُ أنتَ الملْهِمُ
أنت أنت دليلهمْ...
لا تبكني ... لا تبكني
لا تبكني ... بل سرْ مَعِي.
توزر في : 22 فبراير 2011
كان لزاما على أتقياء المثقفين ممّن لم تدنّس حرماتهم في مكاتب التجمع أن يلتقوا.

فبعثت للحياة جمعيّة ثقافيّة ملتزمة تحمل اسم حريّة في مدينة نفطة «الكوفة الصّغرى» وهي جمعية تهدف إلى غرس ثقافة وطنيّة واعية وراقية. ثورة على المشهد الثقافي المزري، الذّي يغلب عليه الطابع الفلكلوري. فالمهرجانات التي أقيمت السّنة الماضية تعيسة وكرّسَت ما كان يقوم به مثقفو التجمع من سهرات غنائيّة وإقامات في نزل وعشاء فاخر وقراءات شعرية لا يحضرها إلاّ بعض الشعراء، والباقي إمّا يسكر وإمّا يجالس أنثى ويدّعي أنّه أشعر الناس، والسلطة الثقافيّة تدعم هذا التوجّه الهزيل لمفهوم الثقافة الفلكلوريّة.

ويؤكد عادل بوعقه ضرورة التطهير وتنظيف الجرح قبل وضع الضمادة، وشدد على ضرورة وجود فكر مختلف وبناء سليم فى داخل كل الهياكل الثقافية التى نخرها الفساد ولم تطهرها الثورة بعد

الآن وزارة الثقافة وعلى رأسها وزير جديد منتخب ويحظى بثقة العديد من أهل الثقافة، على مكتبه الآن العديد من من القضايا العاجلة الّتي لا يجب تأجيلها:

- تطهير وزارة الثقافة من رموز الفساد فيها ونعني ديوان الوزير ورؤساء المصالح.
- تطهير المندوبيّات الثقافيّة من بعض رموز الفساد خاصّة المندوبين الدخلاء على الوزارة، الذين لم يكن لهم مؤهل سوى أنّهم كانوا مدعومين من التجمع المنحلّ.
- إعادة هيكلة المهرجانات الثقافيّة وجعلها تحت إشراف الوزارة وتحت مراقبة دائرة المحاسبات.
- التوزيع العادل للفضاءات الثقافية بين الجهات.
- دعم الثقافة الجادّة.
- رفع الدّعم عن الجمعيّات الثقافيّة. الّتي لا ينتفع من تمويلها سوى بعض المشرفين عليها، وتوجيه الدعم للكتاب والأعمال الفنيّة كلّ حسب قيمته الإبداعيّة، هذا إذا شئنا النهوض بالإبداع وأوّل الجمعيات هي «اتّحاد الكتاب» الّذي يتحصّل في كلّ دورة انتخابيّة على 500 ألف دينار دون أن نرى أثرا

ماديّا لها، فلو توزعت على طباعة كتب للمبدعين لغطّت على الأقل 200 عمل إبداعي ورقي واحسب بعد 10 سنوات ستجد على الأقلّ900 كتاب تزين المكتبة الوطنيّة. بالنسبة لبقيّة الجمعيات الثقافيّة التي تنفق أموالها في الحانات والمطاعم الخاصّة والفلكلور الثقافي الّذي لا ينفع الوطن في شيء سوى انتفاع السلفيّة الثقافيّة منها دون وجه حق. الآن لي فضاء ألتجئ إليه هو الفضاء الإفتراضي أقبل فيه أصدقائي المناضلين ممن عشت معهم سنوات الجمر في العمل السياسي السرّي للتنظيم القومي الناصري في توزر زمن حرب العراق وما قبله، وزمن حزب العمل الوطني الديمقراطي وزمن القوميين التقدميين الّذين بدأوا يتجمّعون من جديد بعد 14 يناير، فالمثقف العضوي هو الّذي يشارك مجتمعه في همّه الاجتماعي والسياسي والاقتصادى.

قومي في هذي الرّياح
وانْتَصِري ...
للعاملَ الفلاّح في الحقلِ
للحاملاتِ
فوق رؤوسهنّ فخّارا وماءً
للعازقات الأرضِ
للكادحاتِ
للوشْمِ
مازالَ بعض الوشم في الزّند يقاوم...
يُعلّمُنا التّاريخُ أنّ بعضَ نسائنا ..
كلّ نسائنا...
هنّ اللّواتى حملننا
وسكبنَ الحبَّ فوق رؤوسنا خوفا علينا
وكتمنَ صرختهنّ في اللّيل العقيمِ

وقطفنَ بُسْتانا من الورْدِ الحنينِ
بنجاحنا
وكتبن فوق زنودهنّ
نحن حماة بلادنا ـ ورجالنا...
قومي في هذي العواصفِ
وانتقي لحن الأنوثة
زِيّ كلّ نساء تونسَ
ـ لَمْ يُغطّيهنّ في أيّ زَمانٍ ، برقُعٌ من سوادٍ قاتمٍ ـ
يا بنت عقبة انهضي
يا بنت كاهنة القبيلةْ
بنت ملح الأرضِ من الشّمال إلى الجنوبِ
أنت سيّدة المكان والزّمان
قومي الآنَ وانْتفضي .

توزر في : 23 يناير 201

عاشت تونس حرّة مبدعة، ولْيذْهَبِ الخونة والمتمعّشون والّذين يدّعون الثقافة والإبداع، وهم لم ينشروا ولو كتابا واحدا، الّذين اطردوا من المعاهد قبل أن ينالوا ولو شهادة واحدة ولم يجدوا سوى حمار الثقافة وبعض المثقّفين المهزومين ليركبوهم. إنّها السلفيّة الثقافيّة...؟؟؟
لمثل هؤلاء نقول هذا الوطن سيكنسكم ولن يبقى سوى المثقف العضوي.... ودمتم سعداء

توزر في: 16 فبراير 2012

حكاية بنت البحر مع الثورة

حفيظة قاره بيبان

حفيظة قاره بيبان قاصة وروائية أصدرت »الطفلة انتحرت« ودروب الفرار وفى ظلمة النور انها بنت البحر انها ذات الصوت القادم من بنزيرت مدينة الجلاء التى مرت بمرحلة تاريخية عمرها التعتيم مرحلة حاسمة فى تاريخ تونس لفها الغموض والتستر على عديد من الجرائم التى ارتكبت بحق العديد من المناضلين وبقيت مقبرة الشهداء ببنزيرت محتفظة بأسرار مرحلةالجلاء هبت هذه المدينة كباقى المدن التونسية لتقول تونس لنا وسنخرج تاريخنا إلى الضياء وسنكتب تاريخا لن تطالوه هذه المرة، وهاهى حفيظة قارة بيبان بنت البحر تفتح لنا نوافذ من القلب إلى القلب وتسرد لنا يومياتها

مع الثورة فتقول - الأربعاء 29 ديسمبر 2010 :

أغلق نوافذي على البرد والريح العاصفة، والليل القادم.

أسرع أفتح حاسوبي، وأتابع آخر أخبار الأنترنت.

وطن مزق أردية الخوف، واشتعلت فيه نار الغضب.

ثورة بدأت بحريق أشعله شاب في جسده، بعد أن أهدرت كرامته ومنعت عنه أداة رزقه : ميزان وعربة خضار.

تلاه محترق ثان، انتحر على عمود كهرباء.

انتفض الشباب المحبط العاطل، رغم شهاداته الجامعية. خرج صارخا بأصواته الهادرة في ساحة الحريق.

وانتشرت المظاهرات في المدن والقرى. صرخات تنتشر سريعا، في الوسط والجنوب التونسي، فاضحة للعالم مدى الفقر والقهر والإحباط لشباب متعلم عاطل، أهدرت أحلامه، من طرف نظام يلبس قناع الديمقراطية ويرفع شعارا كاذبا للعالم، ملوحا بـ «سنة الشباب» و «فرحة الشباب».

تطل الصورة المرعبة من الشاشة. الحريق مازال يسوّد وجه الشاب المرمي في المستشفى، تلفه الشاشات. تطل الصورة، موجعة ذابحة، رمزا لشباب يائس و شاهد إدانة صارخة على نظام فاسد، دمّر العباد، وصحّر البلاد.

ومع ذلك دعى النظام المصدوم متزلفيه للشكر والحمد في واجهته الإعلامية. ومحاولا استباق الأحداث، هرع إلى إجراءات سريعة متوالية تحاول إطفاء نار الغضب الشعبي.

–وأمضي على قلقي إلى النوم..أذكر ابني الطالب في العاصمة التي بدأت تتحرك..يزداد خوفي من القادم..أرفع الغطاء على قلقي ومخاوفي، وسؤالي لا ينام: كيف سيكون الغد ؟

– الأحد 2 يناير 2011 :

عام جديد يطلع بغيم كثيف يلف أرض تونس.

انتفاضة الوسط تمتد زاحفة من الوسط إلى الجنوب ... إلى العاصمة.

بدهشة ، يتابع الجميع انتفاضة شباب تونس البلد الصغير الهادئ المسالم. من كان يصدّق أن شبابا رُبّيَ على التهميش وسُطِّحَ تعليمه، وفتحت له كل أبواب التخدير، سيثور يوما بهذه القوة رافعا شعار الحرية والكرامة، سلاحه الوحيد صوته الهادر وتقنياته الحديثة التي أبلغت صوره وأخباره وأغانيه، على الفور، إلى العالم، متحديا بذلك الإعلام الرسمي الذي يتقن تزييف الواقع ووأد الأخبار؟

«لا تقاوم ! ارضخ لكل الأوضاع ! اقطع لسان الرفض ! أو ضع جيدا القناع !»،

كان هذا قانون الحكام وقانون البقاء على أرض تونس. ولكن الكبت الطويل الخانق، مآله حتما الانفجار.

على مدى السنين الماضية، شرر كان يتطاير أحيانا هنا أو هناك. ولكن من يقاوم، يقتله القمع أو الجريمة، أو ينكتم صوته بين جدران السجون، أو يدفع للرحيل والمنافي. لا فرق بين شمال وجنوب. فقط، تختلف أنواع الجرائم والضحايا.

هنا في مدينتي البحرية أقصى الشمال التونسي، انتشر العاطلون في الشوارع... نزلوا من الضواحي القريبة، وانتشرت الجريمة في قلب المدينة وفي وضح النهار.

رجال الشرطة منشغلون بأمن الحكام وحراسة صور الرئيس واحتفالات أعياده...ونساؤنا في شوارع المدينة يسقطن كلما قاومن، جريحات أمواس العاطلين الغاضبين، أو قتيلات، في وضح النهار، على بعد أمتار من مراكز الأمن، كما حدث لسلوى نعمان التي أصبحت رمزا لضحايا الجريمة في مدينة بنزرت.

لم تقبل الولاية بترخيص لمسيرة سلمية للنساء، تدعو لحمايتهن ضد الجريمة. لم يقبلوا بدقائق صمت دعا إليها شباب محتقن ضد الجريمة، في المكان الوحيد المرخص فيه للتجمع : ملعب الكرة.

كانت المدينة تودع ضحاياها، بأحزانها ودموعها، إلى المقبرة، وإلى السجون. وتعود في صمت بحزنها الشاسع على شباب أصبح مصيره القتل أو الجريمة أو الاستسلام لكل إمكانيات الهروب التي يوفرها له النظام : الكرة، المخدرات، والفن المبتذل الرخيص.

ولكن التراكمات تتوالى، تؤجج الثورة في النفوس المحتقنة...تاركة أرض تونس مهيأة لكل الاحتمالات...

- الثلاثاء 11 يناير 2011 :

كم هي لاذعة البرد، هذه الشمس الغاربة في سماء تونس!
أسرع في طريقي عائدة إلى البيت قبل موعد حظر التجوان ..

روائح القنابل المسيلة للدموع تنتشر، لأول مرة في المدينة المستلقية في أحضان البحر...تخنق النوارس الطائرة فوق البحر الهادر.

نزل اليوم البوليس بعصيّه، وسلاحه لتفريق المظاهرة بالقوة...الحريق اليوم وصل إلى أقصى الشمال...

وها هي تمطر...تمطر اليوم في شمال تونس ثلجا ودما.

لأول مرة، تنتفض تونس من جنوبها إلى شمالها، وترمي الخوف للنار التي أحرقت محمد البوعزيزي، في ساحة المدينة المنسية، وأحرقت قبله وبعده شبابا، كره الحياة، وقد سحقه الظلم والقهر والتهميش والطغيان.

تصبح عارية إلى حد البشاعة، حقيقة النظام التي فضحها الشباب الصارخ بحقّه في الحياة.

اليوم، أعلن عن اثنين وخمسين قتيلا عدا مئات الجرحى الذين ملأوا المستشفيات...الجيش يحيط بتالة والقصرين والتمرد يتواصل ويشتد مع سقوط القتلى من الشباب الأعزل الذي يقصف في سن الورود إنه يطالب بالشغل والكرامة والحرية. أصبحت شعاراته الآن تدعو إلى سقوط النظام...قناة الجزيرة تواصل تقديم تقارير خبرائها، كاشفة حقيقة المعجزة الاقتصادية التونسية : بلد غارق في الديون الخارجية، تاركا طريق التسول للأجيال القادمة.

الليل ينزل مشحونا بالغضب، على أرض تمزق أردية الخوف وتثور ضد القهر الطويل الجاثم على صدرها.

أفتح الحاسوب..على الشاشة، تتوالى الصور والأخبار والنداءات للصمود أمام القمع...الشعارات ترفع بالعربية والفرنسية والإنجليزية، لتنشر مواقع الأنترنت أخبار الشباب الثائر في أصقاع العالم.

«غدا، الساعة العاشرة، نخرج للتظاهر في مدينة بنزرت، نجوب الشوارع حتى الولاية»

«غدا يخرج شباب المدينة في مسيرة بالشموع بسيدي سالم، بعد إغلاق المعاهد والجامعات إلى أجل غير مسمى».

...تتوالى الدعوات على الفايسبوك، للخروج إلى الشوارع، في جل المدن، حتى يسقط النظام، وقد تأجج الغضب الهادر مع توالي سقوط الشهداء من الشباب الذي واجه الرصاص بصدور عارية وأيد مرفوعة.

رياح باردة عاصفة هذا المساء، لا تطفئ حرائق الأفئدة التي طال صبرها، بل تزيدها أوارا.

أترك الحاسوب..تظلم الشاشة...تنظر إليّ أوراقي المبعثرة المغبرّة...الآن كل المشاريع تؤجّل!...

روايتي المنتظرة الخلاص...شهادتي لندوة الرواية العرية ...كل المشروعات تؤجل !

يدخل الشباب المحترق مساحاتي البيضاء...يرفع شهاداته الجامعية التي اصفرت لعيون الكاميرا السائلة. تتعرى تجاعيد اجتاحت الجباه تحت خصلات الشعر الهوجاء...شباب ملّ البطالة والوعود، ويئس من سنين الانتظار.

...تنكسر الواجهات الهشة البراقة، لتطل الحقيقة صارخة موجعة، لشباب فقد الأمل في غده. ما عاد يهمه النار يحترق بها أو الرصاص يخترق رأسه أو صدره... فقد الأمل،وفقد الإيمان.

- الخميس 13 يناير 2011 :

...بنزرت تحترق !

شارع الحبيب بورقيبة يخرّب في وضح النّهار...والمونبري تكسر واجهاته، تحترق معروضاته...النيران تندلع في العجلات المطاطية في أهم شوارع المدينة. والهباب يلوث الجدران.

الأسلاك الشائكة تسيّج البنوك...والمغازات الكبرى تنهب في وضح النهار... عربات المونبري تجول بالسلع في الشوارع... يسرع بها بعض المنقضين على فرصة الانفلات المخيف ..أين الدولة؟ أين رجال الأمن ؟

في قلب المدينة، اختفى رجال الأمن، وانتشر الجيش في المفترقات، يراقب فقط، في مدينة تعود إلى ذاكرة الحروب. ولكنها الآن حرب الجياع والمقهورين والناقمين.

مذهولة بصباح الخراب، يسرع خطوي لألحق بالمظاهرة المنطلقة من أمام اتحاد الشغل صباح الثالث عشر من يناير ...

يبزغ في الذّاكرة شهر يناير ...»يناير التونسي«

يناير 1978 ...يناير 1980...يناير 1984...

تاريخ ثورات سابقة أخمدت نيرانها، ولكن البركان الذي تراكمت عليه السنون، كان يتأجج في صمت، ليثور من جديد ولتكتسح حممه كامل البلاد.

تلوح لي في أقصى الشارع، الجموع...شباب ورجال ونساء من كل الأعمار... تلوح صور غيفارا، واللافتات ترفعها الأيادي داعية لسقوط النظام.

يسرع خطوي...ألحق بالجموع..ألتحم بها...

يصادفني أخي، معه، أرفع إحدى اللافتات المطالبة بـ «الكرامة و الحرية».

يتحرر صوتي ويرتفع، مستعيدا قوته وعنفوانه، ويدي تعلو، ملوّحة مع الجماهير، في شوارع المدينة الثائرة.

ها هي ذي مدينة البياض الهادئة المسالمة.

شبه الجزيرة في أحضان المتوسط، قبلة الفرنسيين وباريس الصغرى، كما كانوا يسمونها، وما قدروا على تركها إلا سنوات بعد الاستقلال وإثر معركة الجلاء.

مدينة الشهداء، الصّامدة الصّابرة، الكاتمة لوعاتها، المكمّمة بلجام الخوف الّذي أتقن صانعوه نشره، ففي كل عائلة فتى أو فتاة أو رجل ـــ قريب أو بعيد ـــ عرف السجن والقهر والتعذيب، لفكرة حمل، أو على صلاة فجر واظب، أو جرأة على قول يكره الحكام قوله.

المدينة التي غزت شوارعها، السنوات الأخيرة، الجريمة. ومنعت حتى من مسيرة سلمية للنساء تدعو لحماية المرأة ونشر الأمن، بعد مقتل الفتاة سلوى نعمان، رمز ضحايا الجريمة بالمدينة.

ها هي مدينة البياض، تنفض أردية الصمت، وتقطع ألجمة الخوف على الأفواه، لتطير النوارس صاخبة على امتداد شبه الجزيرة.

أمواج البحر تعلو في سماء يناير المدلهمة، يضيئها اللهيب..يضيء الشوارع التي تحول فيها العاطلون المقهورون إلى مجرمين أو مدمنين أو يائسين «حارقين» إلى الضفة الأخرى، أو منتحرين على أرصفة مدينة، نهب حكامها خيراتها وتركوا شبابها لشوارع خربة ومشروعات تضحك منها الأوهام.

تمضي خطاي واثقة مع الجموع...

يستعيد جسدي قوته وعنفوانه...يعلو صوتي مع أصوات المواطنين، جوقة واحدة تنادي بسقوط النظام، وتنشد عاليا، بصدق وحرارة، «نموت نموت ويحيا الوطن» وقبضات الأيدي ترتفع للسماء لاستعادة حقها في الكرامة والحرية والحياة...

...قطرة كنت في بحر هادر...

...رجعت إلى البيت...وأنا أشتعل وأضيء.

- الجمعة 14 يناير 2011 :

شمس صفراء منطفئة هذا الصباح...

البلاد تنتفض...ارتفع عدد القتلى...قد يكون تجاوز المائة.

أمس، ظهر الرئيس، في خطاب ثالث خلال أسبوع، ليقول إنه فهم الآن كل شيء، وسيغير، ويقاوم الفساد، ويبعث لجنة تحقيق مستقلة، ولن يترشح لانتخابات 2014.

«لا تصدقوا كذبه ! إنه دوما يكذب !»، هكذا صرخ منصف المرزوقي، المعارض، في إحدى القنوات العربية، منبها التونسيين، داعيا إلى مواصلة الانتفاضة.

الشباب الغاضب لم يعد يصدق حرفا يرسله قصر قرطاج.

أمام التلفاز، من قناة إلى قناة، إلى شاشة الحاسوب، تتوالى الساعات، نتابع الأحداث، نقرأ رسائل غضب الشباب الثائر في كل الجهات، أخباره، صوره، في تالة، القصرين، سيدي بوزيد، العاصمة، بنزرت...

نكتب تعاليقاتنا، جملنا القصيرة أو الطويلة، مؤازرتنا...مخاوفنا...حزننا على شهدائنا المقصوفين في عز الشباب...خشيتنا من القادم، والبلاد تنتشر فيها نار الجحيم.

أمس، في آخر العشية، على طريق الكورنيش خرجت أحث الخطى في الضاحية الهادئة، أحرق نسبة المرض والتوتر التي ارتفعت في دمي.

بدا الطريق خاليا، موحشا. قاعات الشاي مغلقة..المحلات مسدلة ستائرها الحديدية...سيارات قليلة تطير مسرعة عائدة إلى مآويها...والريح تطوح بأغصان الشجر العالية في السماء المكفهرة، وأنا الوحيدة في الطريق..المصابيح ظلت مطفأة رغم الليل النازل..ما الذي يحدث هذا المساء ؟

لم يحن أوان منع التجوال بعد...والجو ينذر بالخطر.

فجأة، في شبه العتمة القادمة، بدت في منعطف طريق الكرنيش الجديد... مجموعة تقطع الطريق وتمسك بالعصي الغليظة...توقفت لحظة، متوجسة، لم أستعد بعض طمأنينتي إلا وأنا ألمح أحد شباب الحي بينهم.

...لقد اجتمع شباب الحي لحماية الكورنيش، بعد ورود خبر قدوم سيارات مريبة إلى بنزرت، تطلق النار، وهي في طريقها للهجوم على الكورنيش.

عدت أدراجي، مع خوفي مسرعة إلى البيت.

وجدت هاتفي يرن وشقيقتي تسألني :

ـ أين أنت ؟ ...الآن المدينة ساحة حرب..الرصاص يتطاير ! لا وجود لرجال أمن ! ...إننا في غاب!...حاذري!

أذكر ولدي الغائب في العاصمة...تزداد خشيتي وقد توقف هاتفه عن الجواب.

أستنجد بقهوتي...الخوف شاسع رهيب...متوترة، أفتح التلفاز، أتنقل من قناة إلى قناة.

اليوم، الجمعة 14 يناير ، المظاهرة المليونية الآن في شارع الحبيب بورقيبة وأمام وزارة الداخلية، تصرخ منادية بسقوط النظام.

رفعت تونس شعار «نعم نستطيع». بعد ثلاثة أسابيع من انطلاق الثورة، بالصمود، نستطيع إسقاط النظام وتنحية الدكتاتور...

أحاول مرة أخرى الاتصال بولدي...دوما لا يجيب.

إحساس قوي بأنه هناك، مع المتظاهرين...بحر هادر من البشر يفيض به الشارع الرئيسي...الجماهير لا تتراجع أمام رجال البوليس وأدوات القمع، ومئات الآلاف يصرخون بسقوط الرئيس...والعرش يرتعش...وأذنابه من عصابات العائلة الحاكمة تنتشر، مخربة...لترويع البلاد.

وخبر عاجل تعلن عنه أجهزة : بعد قليل، يتم الإعلان عن خبر هام في تونس.

الليل قادم بكل الاحتمالات : إعلان حكومة جديدة...انتخابات تشريعية...أو سيناريو آخر يكتبه لنا القدر.

أخيرا، ظهر رئيس الحكومة التونسية على الشاشة معلنا الخبر : لقد ترك الرئيس البلاد مخلفا مسؤولية تولي الأمور لنائبه!

بدهشة وذهول وفرح متردد لا يكاد يصدق تلقينا الخبر : هــــــــرب الرئيـــس ! سقـط الرئيـس !

وتوالت الأخبار متسارعة على القنوات التلفزية وعلى الأنترنات : هرب بن علي في طائرته..لم تقبل فرنسا استقباله، ولا مالطة.

قد يكون الآن في السعودية...حاولت عائلة أصهاره الفرار، ولكن الطيار التونسي رفض الإقلاع بهم...انتشر الجيش في البلاد لحمايتها من ميليشيات النظام البوليسي الباقية...وحالة الطوارئ قائمة.

– السبت 15 يناير 2011 :

شمس جديدة تشرق اليوم على البلاد.

تضيء عناوين الصحف المندهشة المفاجأة بشعب صغير أعزل، يسقط خلال 3 أسابيع أحد كبار الطغاة العرب.

«الشعب هو الذي يقود التغيير»

«شكرا لتونس!» كتب عبد الباري عطوان في القدس العربي

«دعوة إلى وزيرة الخارجية الأمريكية، بإعداد جزيرة لأصدقائها من الدكتاتوريين

العرب القادمين، كما أعدت غواتيمالا».

كتبت ساخرة إحدى الصحف.

رسالة من مجلة فرنسية تأتيني، على الفايسبوك للحديث عن ثورة تونس.

دم جديد يسري في عروقي

نسائم حرية نشوى تنعش صدورنا المتعبة.

لأول مرة، منذ سنين طويلة، أستعيد اعتزازي بأني تونسية، أرفع السماعة.

«مبروك!» أقول لكل من يجيبني صوته.

الباب يطرق

أخيرا، مع ضوء النهار المشرق، يدخل فتاي الجميل الغائب.

تطل قامته الفارعة، تنحني علي..يقبل وجنتي.

تفاجئني عيناه الكبيرتان داميتين..متلهفة أسأل عما أصابه.

ــ لا بأس ! أنا بخير !...إنها قنابل الكليروجين !

كما حدست، كان أمس مع المتظاهرين في شارع الحبيب بورقيبة.

رغما عني، تتسارع الأسئلة على لساني، عن المظاهرة والقتلى والجرحى، وعن مأواه الليلة الماضية.

يجيب، باقتضاب، مرفوع الرأس : ـ في القصبة !

...تسأل أمومتي، أخيرا، ...قبل أن يغادر إلى رفاقه من شباب الحي.

ــ و...كيف هي الدراسة ؟

تشتعل الحمرة في عينيه الداميتين، يحدق في وجهي مجيبا بحزم وألق حماسة جديد ينير وجهه :

ــ المهم الآن هو الوطن !

تنحني رأسه العالية علي، وذراعه تمتد تحضنني وهو يكرر بصوت حيويّ واثق :

ــ المهمّ الآن هو الوطن !

شهادات متشظية..
من الحلم المستعصي إلى الأمل البنَاء

منذر شريط

منذر شريط تخرج فى معهد الصحافة وعمل فى معظم الصحف التونسية وكانت له علاقة بالنخب الفكرية والسياسية، من خلال الحوارات التى اجراها والندوات كان حديثه عبارة عن جولة فى تاريخ اتحاد الطلبة وفى مراحل مرت بها البلاد وقد عنون كلامه بشهادات متشظية كايحاء إلى التشظى الفكرى الذي طال البلاد وقال:

كيف لرجل اتصال إداري،إعلامي حر وكاتب أن يستوعب اللحظات الثورية التي تمر بها الجمهورية التونسية الثانية التي تولد الآن وسط تحديات الثورة المضادة المهددة بإنتكاسة لا قدر الله لما يسميه المؤرخ التونسي الفذ، د.هشام جعيط بالإستقلال الثاني للبلاد التونسية وذلك إذا إعتبرنا أن ما حصل في 20 مارس 1956 هو الإستقلال الأول.وأن ثورة 17 كانون الأول – 14 يناير2011 هي التي حققت الإستقلال الثاني والنهائي للبلاد. وهذا التوجه التاريخي يشاطره فيه عالم الطب الإجتماعي والمفكر الكاتب د. المنصف المرزوقي .يكتب هذا الأخير عن ذلك كما يلي:»لم يعد هناك من حاجة للتدليل على أن الاستبداد الذي يتحكم في رقابنا اليوم جد مختلف عن استبداد ما بعد الاستقلال الأول ..» سوف تكون مقاربتنا لتوصيف هذا الاستيعاب لهذه الثورة،ثورة يصر المناوئون على تسميتها بثورة الياسمين ويتمسك من صنعها من شعب تونسي ومثقفين

عضويين حسب التحديد الغرامشي للمفهوم بتغميدها في دماء الكرامة والعزة لتونس المجيدة،ضمن منحى شاعري يندرج في شكل من السيرة الذاتية لكاتب هذه السطور.

فقد نشأ هذا الكاتب طفلا محبا لقريته الثانية حاجب العيون وهي التي وصفها المخرج التونسي والعربي المتميز رضا الباهي بأنها أجمل قرية عرفها في العالم (نص حوار صدر بمجلة اليوم السابع في الثمانينات).ثم درس بمعهد المنصورة (نسبة للأمير الفاطمي "المنصور ؛946 953- م) الذي بعد أن أجهض ثورة الخوارج مستهدفين مدينة المهدية، آنذاك،قرر هجرة عاصمة الفاطميين ملجأه الحصين نحو مدينته الجديدة صبرا أو المنصورة (وهي ضاحية متاخمة لعاصمة افريقية آنذاك - القيروان) حيث نشأت أعتى الحركات التلمذية والتي ساهمت كغيرها من الحركات الإحتجاجية في إشعال ثورات الخبز(يناير 1984) بتونس مما شكل إسفينا أولا دق في عرش مؤسس النظام التونسي،الحبيب بورقيبة، زعيم "الاستقلال"،هذا الذي وصف بالديكتاتور المتنور مقارنة مع الديكتاتور الجاهل،المخلوع.وكان ما يؤاخذ عليه الديكتاتور الأول معاداته للتوجهات العروبية لتونس ودمجها منذ الاستقلال الأول في فلك المنظومة الغربية الأوروأمريكية

من أقسى وسائل القمع التي تمارسها الأنظمة البوليسية ضد معارضيها هي حرمانهم من السفر. رغم أني اخترت أن تتوقف مرحلة نضالاتي الطلابية خلال السنة الجامعية 1989-1990، وقد يكون ذلك نابعا من خوض تجربة نضالية جديدة هي الحياة الصحفية مع مجلة المغرب العربي، وهي كبرى المجلات التونسية لرجل بورقيبي قمعه المخلوع ونفي لفرنسا،ثم عاد بعد 14 يناير 2011 ليعيد بعث المجلة في شكل يومية وهي من الصحف اليومية الأولى على صعيد المبيعات اليوم. احتككت لمدة ثلاث سنوات ولاأزال طالبا بمن سبقني في النضال السياسي والنقابي من مختلف المشارب والتوجهات الإيديولوجية والسياسية في هذا المختبر الإعلامي الحقيقي. ساهم إنتهاجي هذا التوجه المهني في بلوغ نوعا من النضج والعقلانية. كما أضافت

توجيهات أساتذتي في معهد الصحافة وعلوم الإخبار الذي كان يستقبل في مقره القديم بمنفلوري وهي أجمل ضواحي العاصمة القديمة تونس طلبة من بلدان عربية شقيقة (المغرب الأقصى وفلسطين المحتلة) وإفريقية صديقة دعما معنويا مهما وإنارة لحسن سلوك هذا الدرب الذي كانت أهم تحدياته حسن الإمساك بمعادلة الأكاديمي والنضالي في هذا المجال. وهذا التحكم هو الذي نمى وعينا الدائم بضرورة الفصل في هذا المجال بين السياسي والإعلامي كما جعلنا متوثبين دوما لتقديم النقد للطبقة السياسية التونسية في خلطها المتعمد أو الذي ينم عن قلة وعي في هذا السياق الخطير. كماأن استشراف ساحات نضال جديدة في ميدان الصحافة جعلني أمضي مع لينين في مقولته الرائعة : "خطوة إلى الوراء،خطوتان إلى الأمام". حدث ذلك بعد ست سنوات من دخولي الجامعة التونسية. طبقت مقولة لينين حتى أتفرغ لإكمال الدراسة بالسنة رابعة صحافة مكتوبة وكذلك إنجاز رسالة التخرج وهي بحث جامعي حول "مجلة حقائق بعد 12 مايو 1991، مضمونا إخباريا وجمهورا"، الأقدار شاءت أن تسير الأمور عكس ذلك. لم ينس البوليس السياسي "جريمتي النضالية" وهي التي اندرجت في ملفات وزارة الداخلية ،فتمت مطاردتي امام طلبة معهد الصحافة والتحقيق معي ثم تجنيدي.

من قبل معتقل الطلبة، رجيم معتوق حيث كانت الفئة الغالبة من المجندين تنتمي للتيار الإسلامي وعدد كبير من الطلبة المستقلين الذين شملتهم أيادي القمع البوليسي للمخلوع بن علي. وهذه الفئة الأخيرة تم الإفراج عنها في مرحلة أولى عندما تم نقلنا إلى معتقل منزل الحبيب العسكري التابع لولاية قابس. من ذلك المعتقل الذي حملت له معي من زادي في ممارسة طقوسي اليومية العدد الأخير من جريدة "صباح الخير" وكتاب أقتنيه من مكتبة الكتاب بشارع بورقيبة تحت عنوان "الذاكرة"، كما لن أنس مبلغ عشرين دينارا، منحني إياها شقيقي منجي، الذي كان يباشر سنته الثانية المهنية في تدريس مادة الفلسفة بمعهد تاحروين من ولاية الكاف .من هذا المكان القصي، وجهت رسالة إلى والدي، ضمنتها مشاعري نحو العائلة وخاصة والدتي التي خشيت

أن تصدم مرة أخرى، وقد ساهمت اعتقالاتي السابقة في أن تصاب بشلل نهائي خاصة إثر مداهمة البوليس السياسي منزلي ربيع سنة 1986 بحي "طريق حفوز" بالقيروان. زارني والدي إثر ذلك إلى معتقلي مستعينا بأحد أصدقائه من قادة الحرس الوطني بولاية قابس. ولأن تقدمي في هذا البحث الجامعي فتح لي شهية زيارة أقرب البلدان وهي جارنا الغربي الجزائر لمتابعة تطور الأحداث السياسية هناك مع صعود التيارات الإسلامية المجابهة للنظام السياسي للرئيس بن جديد ، فقد طالبت والدي بالإسراع في مساعدتي على استخراج جواز سفر، حال الإفراج عني، هذا التطلع إلى السفر كان مزيجا من الطموح المهني في عالم "صاحبة الجلالة". وأيضا رغبة دفينة في أن أدواي إحباطا نالني عندما اضطررت للإقامة بمدن الجزائر: قسطنطينة والعاصمة الجزائر بعد إرجاعي من حدود بلاد المليون ونصف المليون شهيد خلال رحلة طلابية إلى المغرب الأقصى لعدم استظهاري بشهادة التأجيل العسكري على نقطة الحدود التونسية ـ الجزائرية. وعدت لها لأنجح في أول سفرة لي خارج البلاد. تلك هي كانت أحلامي البسيطة في أن أبدأ مشوار السفر مغاربيا، وذلك كان حلما مشروعا منذ بداية شبابي وهو ما كان ينمو شيئا فشيئا في نفسي مثل نمو الكائن البشري في أحشاء أمه. ومع أسفار أصدقاء من أندادي إلى إيران وفرنسا وغيرها من البلدان خلال مرحلة التلمذة. فر الهاشمي حامدي وغيره إلى الجزائر ومنها إلى بلدان أوروبية مثل انجلترا وفرنسا. فصنع وصنعوا ثرواتهم المالية والبعض منهم صنع مجدا إعلاميا وأسس البعض قنوات إعلامية في حين بقينا نحلم بالسفر، حلم البسطاء الذين يرافقوننا ونرافقهم يوميا عبر وسائل النقل العمومي لنتشارك الهموم.. تلقيت أثناء ممارسة عملي الصحفي كمتعاون مع دار الصباح، وإثر ذلك الملاحظ، وجريدة الصحافة، وضمن تجربة قصيرة مع صحف عربية ودولية مثل "فن" اللبنانية الصادرة عن دار الكفاح العربي و"العرب العالمية" دعوات لزيارة بلدان مثل سوريا، لبنان، مصر وهذه الأخيرة جاءت من قبل وزير الثقافة السابق فاروق حسني أثناء إجرائي حديثا صحفيا معه بجناحه بنزل أبو نواس في تونس، تكاسلت

على نشره إثر ذلك، سامح الله الدوام الإداري .فاروق حسني الذي كان يشارك في فعاليات مؤتمر وزراء الثقافة العرب المنعقد في أواسط التسعينات من القرن الماضي، قال لي أمام طاقمه البروتوكولي بعد إتمام الحديث الصحفي : "لماذا يصر بلدكم مثل بلدان عربية أخرى على إرسال نفس الوجوه الإعلامية والثقافية التي هرمت في كل المناسبات إلى القاهرة وبقية المدن المصرية الأخرى ؟ كان ذلك أول نقد ذكي أسمعه مباشرة من مسئول عربي كبير يوجه إلى بقية المسئولين التونسيين فى هذا الصعيد بعد قرابة العقدين، حصلت على جواز سفري إثر تحقيق أمني معي دام قرابة السنتين. فقد حرصت على المطالبة بجواز السفر بعد تشجيعات تلقيتها ممن رافقوني في دروب العمل السياسي والنقابي في الجامعة، وقد عرفوا نفس مصير الحرمان

ثم كانت دعوة الدكتور نبيل قريسة، وهو المشرف على رسالة بحث جامعي ثانية، كانت ستقودني هذه المرة لنيل شهادة الماجستير في اختصاص التراث وعلوم المتحفية من قسم التاريخ بكلية الآداب والفنون بمنوبة. ولكن العمل الإداري –سامحه الله مرة أخرى– هو الذي أعاق مسيرتي في الحقل المعرفي، فمعه كان لي شرف تنشيط جلسة نقاش حول كتابه الصادر سنة 2005، " ابن خلدون مرآة الجيوكوندا" مع نادي "أسئلة الكتاب" الذي نشطه عضو اتحاد الكتاب التونسيين،الشاعر رحيم الجماعي، وبفضل ذلك، سجلت لي حلقة تليفزيونية كاملة من المنوعة الأدبية "خير جليس في الحياة كتاب" في قناة 21 السابقة (تونس 2 حاليا) ثم جاءت هذه النجاحات، ليدعوني، الأستاذ نبيل قريسة لأحزم أموري نحو السفر في شهر سبتمبر 2005 إلى جنوب المانيا، حيث يستضيفنا مخبر التاريخ المعاصر بجامعة كارلوتشا، ومن ذلك اليوم، بدأت متاعبي مجددا مع استخراج جواز السفر ... لماذا استعرض هذه السيرة التي سأستلهم منها وغيرها نصوصا قصصية ؟ ليست هناك إجابة جاهزة ، بل إنني بصدد تأملات في معنى الثورة التونسية ضمن سياقاتها الزمنية وحيواتنا البشرية. هل لنا شرعية في أن نتحدث عن الثورة بمنطق الشريك أو أننا مجرد جمهور يكتفي مثل سائر الجماهير العربية بالمكوث

أمام تلفازه لمتابعة أحداث القصف الصهيوني ضد جنوب لبنان وغزة بكل سلبية ؟ فأنا لم أكن أعي وأنا أرتبط بصداقة خلال فترة الدراسة الجامعية بطالب علم النفس ، محجوب الصغيري الواقع الحقيقي لقرية "تالة"، مسقط رأسه والتي أخذت مشعل الثورة على مدينة سيدي بوزيد وقراها المجاورة : الرقاب،منزل بوزيان،المكناسي.هناك،حيث اشتعلت النيران الأولى للثورة ليختطف لهيبها شباب ومهمشي مدينتي القصرين وتالة، فجن جنون المخلوع بن علي ،فعربد وأزبد في قرطاج مهددا بحرق حي النور بالقصرين عبر قصف جوي لأهاليها وارتكاب جرائم الإبادة،وهذا ما توثقه الأبحاث الجارية منذ أشهرفي المحكمتين العسكريتين بتونس والكاف . ولكن صديقي محجوب الذي يقيم ويعمل حاليا إطارا عاليا بأحد أكبر المؤسسات الإستشفائية بفرنسا كان لا يمل الحديث لي عن ابن أخيه ، كبير العائلة الذي كان أحد السجناء الإسلاميين . كان مالك الصغيري منذ طفولته يستبطن آلام والدته فيحصل لديه وعي مبكر بقضايا الوطن والأمة العربية وخاصة الإستعمار الصهيوني لفلسطين الجريحة فيردد أمام عائلته وأقاربه ومن بينهم صديق الجامعة والنضال الطلابي، د.محجوب الصغيري شعارات الثورة والغضب ضد نظامي بورقيبة الذي سجن أبيه وبن علي الذي فقر قريته وأهاليه.
ما هي طبيعة العلاقات التي تنسج بين هذه الملاحم الطفولية والشبابية . ملاحم ، أبطالها كائنات قد يمكن وصفها بالكائنات الدونكيشوتية في استعارة لمصطلح د. المرزوقي المعارض .ما الذي يجمع بين الحكايات الطفولية لمالك الصغيري الفاقد في طفولته لأب سجنه الديكتاتور وكاتب هذه السطور الذي جند مع رفاقه الطلبة في معتقلات الصحراء التونسية ثم حرم من السفر طيلة عشريتين ليعيش في سجن كبير؟

قد تكون طبيعة هذه العلاقات متنافرة في الزمن والجغرافيا. فكاتب هذه السطور هو من الجيل التلمذي للسبعينات ثم الثمانينات وهو من الجيل الطلابي للتسعينات، انتمى منذ طفولته ومراهقته إلى مدينة،لها طابعها الديني المؤثر.ورغم أنه نشأ في

عائلة غاب فيها النفس المعارض للسلطة القائمة ، فإنه ولتدينه المبكر وانتمائه إلى صفوف الحركة التلمذية بمعهد المنصورة الذي شكل قلعة نضال وسط البلاد التونسية لإيوائه التلامذة من أبناء الفلاحين وصغار الموظفين بأقاليم الوسط والوسط الغربي، كان غير بعيد عن المدن والقرى التي فجرت ثورة الكرامة.

هذا التدين المبكر هو الذي حوله إلى طالب جامعي متعلق بالمشروع الإسلامي كمنهج للتغيير.

اختفى مالك الصغيري من الذاكرة.فقد مرت البلاد بتدمير كبيرللبنية التحتية الفكرية والنضالية وعرفت تفقيرا للحياة الثقافية والجمالية والذوقية طيلة حقبة الثلاث والعشرين سنة من حكم الطاغية المخلوع. لم تتواصل فيما بينها إلا بعسر كبير الأجيال المثقفة وذات النفس التغييري في البلاد . فمنذ استقراره في الحكم بعد سنتين من التعمية والادعاء زورا بالتمشي الديمقراطي ،شمر المخلوع عن سواعد القمع موظفا ضمنه كل الوسائل الأمنية والدعائية والشعبية ليشتت المعارضات بمختلف مشاربها وتوجهاتها . فاختار البعض منها على مستوى القواعد والقيادات السفر أو الهروب خارج البلاد، بينما التجأت بعض الفصائل اليسارية للعمل في السرية. في هاتين العشريتين ونيف تضخم الجهاز الحزبي والأمني والإعلامي الدعائي لنظام المخلوع .

تم شراء ذمم الكثير من النخبة والمثقفين.

في مقال مطول له صدر له مؤخرا بمجلة الآداب تحت عنوان : تونس لكي لا تأكل الثورة أولادها باكرا ،يكتب في هذا السياق د.الطاهر لبيب ، عالم الإجتماع التونسي ما يلي : "الثورة صيرورة مركبة يحمل زمنها الإجتماعي ما يتراكم ،في اتجاه أهدافها. ولأنها مركبة فإن أصعب ما فيها إعادة البناء. الصعوبة مأتاها مطلب القطيعة : هو مطلب شرعي اجتماعيا وسياسيا وأخلاقيا، ولكن حدوده متحركة. سيتضح هذا عند المرور من الإطاحة برأس ضاع بين المطارات إلى نظام نسج سلطته بخيوط وعيون من حديد مصهور،واحتضن مافيا سوقية لم يكن لها ذكاء ولها دهاء ستر

فسادها. وستتضح انزلاقاته الممكنة،أيضا،إذاترجمت القطيعة بتصفية حسابات جماعية أو صنفية .في رأس القائمة حزب حر تحريري في صيغته مشخصن قمعي في صيغ تالية صنعت لهيمنته الإيديولوجية آليات اجتماعية وسياسية واقتصادية وأمنية وثقافية ("بل ذوقية أيضا،جعلت الناس لايرون الأرض ولاالسماء إلا في لون البنفسج!) .حزب تسرب إلى خلايا المجتمع كلها يراقب حركاتها وسكناتها،لايقبل منها فرقا بين استقلال الفرد وعداوته ويوشي بكل إشارة أو فكرة لا تعني امتثالا، ولو كانت لاتزال في الخاطر: فالعقاب استباقي كبقر البطون،خوفا من ميلاد كافر." .

وفي مكان آخر من هذا المقال المهم، يحلل د. الطاهر لبيب السياق الذي ولدت فيه الثورة فيكتب ما يلي: "هناك دائما سياق،ولتونس سياقها الذي جعل الثورة ممكنة، وبالطريقة التي اندلعت بها. هو سياق أوسع مما اختزله المعلقون بالقول :حرمان في ظل ديكتاتورية .فهذان العاملان في واقع التونسي سياق تاريخي اجتماعي،وسمته تقاليد نضالية،وتعليم واسع ، ونخب فكرية سياسية مثقفة ومنفتحة

ولكن هذا جيل جديد من الشباب شكك فيه المراقبون وعلماء الإنسانيات واحتقرته النخبة واعتبره المجتمع المدني والرأي العام صنيعة النظام السياسي القائم خلال العشريات الأخيرة. ها هو هذا الشباب الذي خصص له رأس النظام السياسي سنة الشباب ينتفض عليه ليصنع ثورة الكرامة التونسية . لماذا انتفض هذا الشباب؟ يجيب عالم الإجتماع التونسي د. المنصف وناس: "يقتضي الإستثمار في كرامة الشباب ضمان الشفافية في التسيير والعدالة في توزيع الثروة وتحقيق التوازن التنموي العادل بين الجهات والحرص خاصة على إشراك كل الفئات في صناعة القرار الوطني والمحلي ومقاومة الفساد الإداري والمالي باعتبارهما خطرا محدقا بالتنمية . فالكرامة تعني أساسا الفرص بين الفئات والجهات في العمل والإستثمار والكسب حرصا على تلافي التفاوت الإجتماعي المجحف. فعلا ،إن الشعور بإهدار الكرامة والإذلال هو الذي دفع هذا الشاب ابن منطقة سيدي بوزيد إلى الانتحار حرقا. فبعد أن ضاقت به سبل العيش الكريم وهو الذي يعمل بائعا متجولا وبعد ان

أهانته ولطمته عون التراتيب البلدية في المدينة بعد ان انسدت في وجهه كل ابواب السلطة المحلية ليسمعها مظلمته ،قرر إحراق الجسد ليثأر لكرامته .فتحولت الإهانة الشخصية بفعل القرابة العائلية والعروشية إلى شعور بالإهانة الجماعية أعادت روح القبيلة التي خلناها مفككة ومنتهية بفعل التحديث الاجتماعي الذي أقدم عليه الرئيس الأقدم بورقيبة (1956-1987). فتحول مخيال القبيلة وعصبيتها في منطقة ذات عمق قبلي قديم إلى حركة اجتماعية ازدادت تعمقا مع ظهور المطالب الاجتماعية والسياسية والنقابية

أصبح من المعقول جدا أن يختطف كل شباب الجهات المهمشة هذا القبس الناري المؤذن بإجهاض الديكتاتورية في البلاد . كانت الجهات الأولى التي اختطفت "الأوليمب" الثوري هي مدن وقرى الوسط الغربي وتتابعت لتمتد إلى منطقة الحوض المنجمي ثم توسعت في المدن الكبرى (صفاقس ، عاصمة الجنوب، سوسة عاصمة الساحل إثر انتهاء مقابلة في الدوري الرياضي) واخيرا العاصمة ،انطلاقا من الحزام الأحمر المتمثل في الأحياء الشعبية وخاصة حي التضامن وهو الحي الأكثر كثافة سكانية في أفريقيا. كان من بين هذه الفئة الشبابية الشباب الجامعي والتلميذي . يتحدث صديقي البعيد مالك الصغيري :"الحركة الطلابية حركة عظيمة ، وأن فقدت بريقها في السنوات الأخيرة .هنا في كلية 9 أبريل ، عرفت التحركات تصاعدا تدريجيا منذ انطلاق الأحداث يوم 17 ديسمبر في سيدي بوزيد، تاريخ إحراق الشهيد محمد البوعزيزي نفسه . ورغم فترة الامتحانات فقد تواصلت التحركات وبلغت ذروتها يوم 10 يناير ، الذي شهد تحركات كبيرة في الكليات والمعاهد الثانوية ، ما دفع النظام إلى تعليق الدروس. في البداية كان خطابنا كناشطين طلابيين ، رأينا الأمر في يوم ما قد يتحول إلى لبنات ثورة شعبية، فتشجعنا على مزيد من التصعيد في خطابنا

في 10 يناير اعتقلت في وزارة الداخلية،فلم اشهد هروب بن علي في 14 يناير. لكن قبلها كان السؤال الذي طرحناه على انفسنا، كناشطي حركة طلابية هو : ماذا

نفعل كي نوصل الاحتجاجات إلى العاصمة كان ذلك هو التحدي. وقد امتد نشاطنا إلى خارج الجامعة وبدأنا نفكر في الاتصال بالأحياء الشعبية لحثها على التحرك .

يعود السؤال مجددا،في صيغة انطولوجية : ماالذي يجمع بين الطالب والباحث مالك الصغيري الذي حرم من أبيه السجين السياسي، فكان " خبز أمه وقهوة أمه" باستعارة في تصرف لبيوت من الراحل محمود درويش معمدين بالسياسة وشجونها مع طالب قديم ينتمي إلى الجيل الأخيرللقرن القادم حرم من حريته في السفر لقرابة العشريتين كضريبة لنضالات قديمة ؟

يمكن تصور آفاق إجابة ، هي مفتوحة لمزيد من الحفر السوسيو-بسيكولوجي والسياسي أيضا. لقد حدثت عملية حرق النفس الشبيهة بحادثة البوعزيزي مرة أولى قبل الثورة بسنةبولاية المنستير(مسقط رأس الزعيم بورقيبة بالساحل المحظوظ). مع ذلك لم تلتهب نيران الثورة. كما حدثت عملية حرق نفس لكهل عاطل عن العمل في بداية شهر يناير 2012 بإحدى مدن الإنتفاضة ، قفصة الشهيدة ومع ذلك لم تندلع ثورة ثانية. هنا يمكن أن نسمح لأنفسنا بمقاربة حدث الثورة بأنه ليس فقط صراع طبقي أو تهميش اجتماعي ، ففي هذه الحالة ، تكون فرضية قيام الثورة مجددا قد استؤنفت في مدينة قفصة وهي على بعد كيلومترات من الحوض المنجمي الذي ونحن نحرر هذا المقال المطول ، يهدد زعيمها النقابي ، عدنان الحاجي بالعصيان المدني والإضراب العام لشل قطاع إنتاج وتصدير الفسفاط. كما أن عدم اندلاعها في مدينة المنستير قبل سنة من الثورة تأكيد على ان الثورة هي رماد يشتعل في حاجة ماسة إلى وقود.يكتب ميشال كيلو ليبسط هذه المسألة أو العلاقة الجدلية بين البطولة الشعبية واندلاع الثورة كما يلي :"هكذا يرى المثقف نفسه بديلا للشعب، الذي لا غنى عنه للمثقف فالأول حامل المسألة الفكرية / المعرفية، التي يسمونها "الثقافة" والثاني حامل المسألة الإجتماعية التي تترجم دوما نفسها إلى مسألة سياسة. وعندما تلتقي المسألتان ،يكون فعل التغيير قد نضج ، ويصير الانفجار الشعبي او المجتمعي مسألة وقت، ومسألة وقوع حادث كاشف ، مثله في تونس قيام

الشهيد محمد البوعزيزي بحرق نفسه احتجاجا عى الأمر القائم، الذي انكشفت سماته في تعامله معه وأعطاه الشعب التونسي بحق معاني تتخطى دلالته الفردية إلى دلالات مجتمعية سياسية عامة ، جعلته ينزل إلى الشارع كي يحقق المرحلة الثانية من ثورة بينت ردود الأفعال على موت البوعزيزي، كم كانت النفوس حبلى بها ، وكم كانت ناضجة في النفوس والواقع معا. وإذا كان هذا الدور لعبه مالك التريكي،طالب التبريز في التاريخ المعاصر والناشط الطلابي فإن بقية المشوار أكمله الشعب البطل الذي ضم في صفوفه أمثالا متعددة لمن بقي ولايزال يعاني مرارة السجن الكبير كحال كاتب هذه السطور. يصف المعارض السوري والمفكر ميشيل كيلوحالة هؤلاء عبر هذه الجمل الهامة : "ثمة حاضنة لا بد من التذكير بدورها الحاسم هي بكل بساطة سياسات النظام الذي يغلق السبل في وجه المواطن، ويذله، ويجوعه، ويحول بينه وبين المشاركة في أي شأن، ويعرضه لتهميش متزايد يخرجه من الوجود، ويحرمه من أي حق ويقوده من سيءإلى أسوأ، حتى لا يبقى له غير الموت كدودة أو الإنفجار لاسترداد إنسانيته ومكانته في الحياة.من دون هذه الحاضنة لا تحدث الثورة في مرحلتيها ، فالتمرد العربي الراهن هو في درجة كبيرة،من صنع النظم قبل أن يكون من صنع أي معارضة . ها أننا نشارف تسجيل هذه السرديات العائمة في متون من الفكر السوسيولوجي والتاريخي لنخبة من الجامعيين التونسين ووالمعارضين في العالم العربي (ميشيل كيلو) والتونسيين باحث مالك الصغيري) هاهي صورة ذلك الطالب القديم (صاحب هذا المقال الإسترجاعي) وهو يختفي أيام المطاردات في العهد البورقيبي مصحوبا بصديقه، طالب علم النفس القديم ،د.محجوب الصغيري لدى طالب فلسطيني يدرس بمعهد الصحافة .يتامل محجوب كل صباح قبل أن ننغمس في تناول ذلك الطعام الفلسطيني الشهي المتكون من الفلافل والتبانية في "أكرم" وهو يفلح الشجرة الوحيدة في فيلا ، كان اكرم مستأجر جناح صغيرا بها تكرم له بها أصحاب "الفيلا" . يتأمل محجوب فيعلق ،متوجها لي بالحديث : غنهم متعلقون بالأرض" . وكنا نحتفل كل يوم 30 يونيو به في مختلف أنحاء الجامعة التونسية .

ثورة تونس
بين الحلم والإنجاز

محمد الجابلي

«لايمكن للعقل أن يحكم الواقع مالم يصبح الواقع فى حد ذاته معقولا» يقول محمد الجابلى وهو صوت من أصوات العقل وسط تخبّط فكريّ. وكان بذلك وفيّا لكل إصداراته فى عهد الاسعباد .

فقد صدر للكاتب محمد الجابلى دراسة «الحنين البدائي فى تعقد الذات والحضارة» و «العقل والذاكرة» و « أبناء السحاب» و «نظام الرواية الذهنية» وهذا الروائي كاتب عام رابطة الكتاب التونسيين الأحرار. وهى رابطة رفض النظام السابق السماح لها بالعمل كي لاتنافس اتحاد الكتاب كمؤسّسة داعمة لبرامج المخلوع ومنجزاته ولكنّ الرّابطة صمدت وعملت مع بعض الكتاب الذين احترموا أقلامهم ودافعت عن بعض الكتاب الذين كانوا فى لائحة الممنوعين، ونذكر على سبيل الذكر لا الحصر الكاتب المتميّز عبد الجبار المدوري والأزهر الصحراوى ...

محمد الجابلى روائى يتأرجح بين الحلم والإنجاز لأنّ عقال ما كان فى عهد المخلوع وتعطّل ما يحدث بعد الثورة رواية يجب ان تكتب لتبرز الحقائق. ويبدأ محمد الجابلى قوله بحوار ذاتيّ وهو حيرة جماعية وغصّة كل الكتاب الآحرار:

هل نستطيع أن نقارب الثورة، ونحن فيها وهي فينا، ومنّا، كلانا يكاد يختنق بالآخر، أملا وخيبة، ذلك التوترّ الرّهيب بين الحلم والإنجاز، مساحة تتقلص حينا لتتّسع أحيانا، قلوبا خافقة وأعينا مفتوحة وشفاها مطبقة: «كلما اتسعت الرؤيا

ضاقت العبارة» قول لعلّه للنّفري من شذرات المدونة الحكمية القديمة. فالكتاب والمبدعون الصادقون اكتظّوا بالحلم، جرعة واحدة تكاد تكون خانقة بعمقها وصفائها، نطقت أفواه وسكتت أخرى، اتّسعت مساحة السياسي وتقلّصت مساحة الثقافي الإبداعي...اللحظة ليست للرؤى والخيال بل هي للنّجاعة ...الاستحقاق ليس للفن والجمال وعميق الفكر، بل للسطح وللتطاحن بين الفاعلين السياسيين...

الكتاب والمثقفون والمبدعون، قبل الثورة، كانوا كما أرادتهم أنظمة الجور شيعا وأحزابا، كثيرهم يحترف التملّق والتزيين والتزويق، فكسب الفتات وخسر صدقه الفنّي، وقليلهم مهمّش ومبعد، وأقلّهم مقاوم في مساحات قليلة طبعها الإحتجاج ...كل ذلك عطل الروح الإبداعية أو أعاق ممكناتها، وكانت آلة الدّعاية في نظام بن علي، تنظر لتلك الفئات نظرة القطيع وتسيرهم بل تخضعهم بالجزرة والعصا...

وما يعنيني ككاتب ما آلت إليه أوضاع الكتاب من بؤس معمم، ومن تهالك على الموائد، وما آلت إليه أوضاع الهيئة التمثيليّة الوحيدة للكتاب. وأعني بذلك اتحاد الكتاب من تبعيّة مقيتة ومعيبة، تحطّ من قدر الكاتب وتجعله تابعا ذليلا للسياسي، وما زرعه السياسي بخبثه من فرقة وتنافر آلت بتلك المنظمة الى أوضاع غير محمودة، وبات منخرطوها يكيدون لبعضهم. تتجاذبهم المصالح الآنية الفردية في التقرّب من السلطة وخدمتها. حتى بات بعضهم مسخّرا لخدمة الداخلية في مهام خفية وبعضهم في خدمة الحزب الحاكم في المهام الدعائية المعلنة، وهذا لم يمنع وجود كثير من الأعضاء الصادقين في نواياهم، لكن صدقهم يجعلهم يهمّشون داخل ذلك الصراع والتدافع فتختفي أصواتهم ويبتعدون عن الفعل...

وكانت وزارة الثقافة راعية لكل ذلك، فدورها المعلوم يخضع لتلك اللافتة الدعائية الجامعة للدهماء: «الثقافة في خدمة التغيير» تلك التي تطالعنا للتذكير في كل الاحتفالات الصاخبة بذكرى 7 نوفمبر، بذلك الانقلاب الذي حوّل الدولة إلى عصابة خطيرة، وحوّل المؤسسات إلى وكالات داعمة لمسار النّهب والسّلب وطمس القانون والقيم ...

في ذاك الواقع المدخول كانت فكرة المقاومة حاضرة عند الضمائر الحيّة. لكنها مستعصية على الإنجاز في دولة بوليسية تحصي الأنفاس وتتعقّب الخطى، فكانت النقابات ملجأ احتجاجيا، وكانت بعض الصحف القليلة المعارضة بتحفّظ مثل «الطريق الجديد» لسان حزب التجديد «ومواطنون» لسان حزب التكتل «والموقف» لسان الديمقراطي التقدمي نافذة محدودة ومطاردة رغم حدودها، وكان بعض المسرحيّين يسعون الى تحريك السّواكن بين الحين والآخر...من هذا الفضاء الضّاغط ولدت رابطة الكتّاب التونسيين الأحرار لتعلن بتواضع أن اتحاد الكتاب غير جدير بتمثيل كل الكتاب، ولتعلن أن الكتابة هي لحظة إبداعية لا يستقيم حالها إلا مع تطلّع للحرية ودفاع عنها...

ومنذ تأسيسها سنة ألفين ظلت الرابطة محاصرة – تنوي الكثير وتفعل القليل –في ظل حصار بوليسي خانق عضده ضعف دوائر المجتمع المدني، تلك الدوائر المدجنة في معظمها عدا استثناءات قليلة كرابطة حقوق الإنسان وبعض الجمعيات القليلة الأخرى، وفي هذا الفضاء حّركت رابطة الكتاب السواكن وعضدها أصدقاؤها من الكتاب المميزين ووجدت في فضاء «ألتالير» للجمعيات غير الحكوميّة ملاذا أنجزت فيه بعض رؤاها ومشروعاتها كمقاومة المنع الجائر للكتب. ومحاربة قانون الإيداع القانوني، ذلك القانون الرّقابي الذي منع عشرات الكتب وهمّش أصحابها، فكان من مبادىء الرابطة التّعريف بهم والتنديد بالظاهرة وفرض قراءة كتبهم الممنوعة عبر النّقد والتشجيع والتداول المحدود...وسعت إلى فرض تفاعل بين المثقفين ومنهم الكتاب. والحراك السياسي عبر الفكر النقدي والبعد عن التهميش والإقصاء، ونقد ما كان سائدا من خراب في السياسة الثقافية برؤاها الدعائية المحدودة...

وأعتقد أن «الثورة» هي ممكنات في طريق طويل تستوجب كثيرا من اليقظة والتضحية، هي حلم قد يتحقّق، حلم تحقّق بعضه في الذوات التي أحسّت بطعم الحرية، لكنها تعي النكوص الممكن ومخاطره الكثيرة، كل المثقفين وأعني الوطنيّين منهم، غيّرهم الحلم الممتع لكنهم يدركون حجم المخاطر، حصلت ثورة في الذوات،

فكثر الكلام الحرّ، وفي المقابل ترنّحت الأحلام تحت كوابيس ضبابية، وازداد الواقع في مظاهره بؤسا، لأن « الإنسان إما أن يكون الإنسانية جمعاء وإما أن يكون لا شيء» بحسب عبارة محفوظ وردت على لسان أحدى شخصيات رواية، الشحاذ، الطبقة الوسطى بما فيها الإنتلجنسيا أسكرها حلم البدايات، لكن ذلك الحلم يكاد يجهض بما نشهد في الواقع من دوائر النكوص، نكوص في العقليات، التي انكشف «وهم حداثتها» وارتداد في الواقع الإقتصادي بزيادة الفقر والتهميش والبطالة، حرية في الكلام وزحام في التصوّرات والرؤى يقابله عجز في الواقع وتهميش للمطالب الأساسية والحقيقية التي أملاها الواقع، تلك المستحقّات الكبيرة التي بغيابها ستغيب الثورة بممكناتها...

المشهد الثوري الأول، أعني تلك الهبّة البكر، تلك الهبّة المتوحشة بتلقائيتها التي جعلت الشوارع تكتظّ بغضب جماهيري، وحد كل الفئات والطبقات والأجيال في زحام احتجاجي مفاده أن الأمور باتت غريبة وخطيرة وغير مقبولة في حكم العصابات الطاغية، تلك الهبّة تكاد تضيع عندما تدخّل السياسيون الجدد لتدجينها، فتحوّل الزحام الثوري من الشوارع العريضة ببراءتها وصدق منطلقاتها إلى ركح مسيّس كثر فيه الفاعلون السياسيون، وكثرت فيه الإيديولوجيا التي من أسوأ مظاهرها ذلك الاستقطاب المسّطح في قراءته للواقع والعميق في تأثيره على جموع حديثة عهد بالحرية ومسؤولياتها، استقطاب توزعت فيه الأحلام والهواجس، وكثرت فيه الوعود، زحام سياسي لم ير في الواقع غير زحام على السلطة دون وعي حقيقي بتبعاتها وأعبائها ومخاطرها...

تحوّل الفعل الثوري من الشارع الى الركح، وكثر الممثّلون، في خطابات إقناعية يغيب معها الإقناع بغياب المعقول فيها، لكنها – ومع ذلك- كانت تلقى هوى عند جمهور متعطّش للجديد، جمهور تقاطعت أحلامه بين الحرية والكرامة والخبز والهوية ...جمهور عاطفي تعوّد اللامبالاة أو التصفيق والتصفير والإصطفاف، لكن هذا الجمهور كان متعطّشا للإنتخاب رغم تداخل المسالك وكثرة المتهافتين فاصطفّ

وانضبط من أجل ذلك الإستحقاق...

تعاقبت حكومات مابعد الثورة، وكل حكومة تدقّ مسمارا في نعشها، فزال الخوف عن أعوان النظام البائد وعادوا بنفوذ قوي متسللّ داخل الجهاز الإداري المتمكّن من مفاصله وجزئياته، وجاءت الحكومة المنتخبة في هذا الظرف الملتبس لتكون أسيرة تلك الأجهزة من جهة وضحيّة جهلها بمسالك الإدارة من الجهة الثانية ...

تغوص الحيرة فى أعماق الكاتب الحر ويغوص بدوره فى أسئلة تبحث عن إجابات . فالخوف على مسار الثورة وعلى حلم الشعب التونسى حلّ كطائر يحلّق بين الغيوم لكنه إلى حديقة يسكنها الربيع قرّر النزول ليشدو للحلم والحياة. قائلا:

عن أية ثورة نتحدّث، بعدما رتّبت أياد خفيّة عودة زعامات منسيّة من عهد بورقيبة؟؟؟

عن أية ثورة نتحدّث حين لا نعترف بالجديد الممكن فيها؟؟

هرب البعض واطمأنّ الآخرون، أولئك الذين عادوا للفعل بأكثر حرّية وشراسة؟؟

تحدّث البعض عن المال السياسي وأثره السّلبي في الحملة الإنتخابية، ونشهد اليوم أموالا أخرى متداخلة المصادر تشتري الذمّ وتكاد تحوّل تونس الى سوق للمزايدات المفتوحة حسب أجندات، بعضها معلوم وأكثرها خفي وخطير، عشرات الصحف مجهولة الحسب والنّسب قليلها بّين ومفيد، وكثيرها مدسوس ومشبوه... مئات الجمعيّات ترفع لافتة المجتمع المدني التعددي لكنها أبواق تتذيّل لجهات عديدة في الداخل والخارج، فضاء مدخول وملتبس ورياح تعصف في نوافذ مشرعة بكل الإحتمالات؟؟؟

في هذا الوضع الملتبس بين الثورة والنّكوص كان لا بد من استدعاء الهامش، ليكون في الصّدارة...

إذا تمّ الفصل بين الحرية والخبز فقدت الحرية مسوغها، وهيّجت القوى الخفية الشباب والإعلام ليصطنع القضايا والحروب، وانقسمت الحساسيات - التي كانت موحدة - انقساما مشبوها بين دعاة الحداثة المشبوهة من جهة ودعاة الردة السلفية من

الجهة الثانية، وانجذبت الأنظار الى دوامات غريبة كل الغرابة عن واقعنا، واختفى البوليس السياسي، لكنه في الواقع حوّل مهامه من تتبّع الخارجين عن السلطة سابقا إلى صنع الألغام وإشعال فتيلها بين الفئات الشابة المستعدّة لكل شيء. واندسّ ذلك البوليس بجهازه القديم بين تلك الفئات ليثير النعرات، وترنّحت الحكومة بين تلك التجاذبات لكنها تستغلّها – في كل الأحوال- لتبرر عجزها أمام وعود كثيرة ومشاكل متراكمة...

هذا هو الحال من وجهة نظر بعيدة عن الاستقطاب الأيديولوجي، وجهة نظر الكتاب والمثقفين الذين تركوا الساحة للسياسة وأهلها، استقطاب ايديولوجي غيّب العقل ومعه الواقع وعزف على أوتار العواطف المتحجّرة...يقول هيجل:

« لا يمكن للعقل أن يحكم الواقع ما لم يصبح الواقع في حدّ ذاته معقولا...»

وواقعنا يبتعد عن المعقولية ويغيب منه العقل.

ثورة بلا أيديولوجيا في بدايتها غير أيديولوجيا الواقع بوضوح استحقاقاته، تتحوّل مطيّة لمتقاعدي السياسة ...ثورة لم نر منها غير الزعيق والتنافر والإدّعاء الكاذب والدسائس...

لكن الخطوة الأهم وربما الأفضل هى الوعي بممكنات المواطنة وضرورة الديمقراطية، ذلك الوعي الذي يجب ان يترسّخ رغم كيد الكائدين، ذلك الوعي الذي ينبغي أن يرشد بالعقل والبعد عن التّنافر المزعوم، تنافر ترعاه قوى الثورة المضادة يحجب الكثير من الأمل...

حين تصبح الثورة غنيمة
والثقافة وليمـة !!؟

الثقافة بين
فكي الثورة وأنيــاب الديمقراطيـــة

شكري العياري

شكري العياري كاتب وروائي تونسى صدر له «زائرة الليل» و» طعم الرماد» و»ثمن الشهرة» و»أسوار الشوك» وهو أستاذ علم نفس الطفل بالجامعة التونسية .

اعتبر هذا الكاتب والصحفي والإعلامي الثورة سيدة المقام واعتبر ما كتب عنها بعد ركوب من بعض المثقفين إخراجا متسرعا ولخص تمزقه بين الحيرة والتساؤل فى سطرين. قائلا :

من بديهي القول إن الثورة الثقافية عادة ما تستبق الثورة السياسية ، لأنها تمهد الأرضيـة الخصبة للانتفاض على حالتي الركون أو السكون تحت إيقاع الطابع الثقافي والطبع التثقيفي الذي يساهم في توسيع آفاق الانعتاق من مساحات الموجود بالألم إلى فضاءات المنشود بالأمـل .

ولذلك اعتبر المؤرخون الثورات السياسية أجنة الثقافات الحضارية من حيث هي الحضن الدافىء الذي تترعرع فيه القيم البديلة والمثل الأصلية ، وهذا ما حدث مع الثورة الفرنسية والثورة الصينيـة والثورة الروسية وغيرها ...

براءة اختـــراع

إلا أن ما حدث في تونس هو براءة اختراع تونسي صميم ، فقد اجتهد النظام

السياسي السابق ليقوم بعملية تصحير شاملة لكل مساحات الثقافات التي يمكن أن تفضي إلى مجتمعات ديناميكية مثقفة عضويا ، وبذلك قام بالقضاء على كل المحاولات التنويرية في مهدها وأسقط كل الرموز الثقافية التي قد تنبىء بميلاد رموز إبداعية في كل مجالات الفنون ...

هذا الواقع المفروض قسرا أنتج مناخا جافا وخاليا من الإبداع الحق ، بل استبدلت فيه الثقافة القيمية بالثقافة الاستهلاكية ومر المجتمع عبره من الثقافة العميقة التي تبنى إلى الثقافة العقيمة التي تخصي ، فأصبحت الثقافة عبارة عن مناسبات تأبينية لمئويات فنانين أو كتاب وأصبح الشعر ملاحم عكظية للمديح والنظم الصريح ، وقامت مدينة الثقافة شاهدة خالصة على ضريح الثقافة التي أخرجناها من الشوارع من جهة أنها نبض المجتمع إلى بنايات رخامية مازالت تنتظر الإمدادات لتكتمل صورة مدينة تونس الثقافية ، حتى لكأن الثقافة شبعت وفاضت على قرائح الشعب العظيم الذي شيد لها مدينة الأشباح لتتراقص بداخلها الخفافيش !!؟

لذلك ضيق النظام من أنفاس المثقفين وبنى على شرفهم ضريحا ضخما يليق بصمتهم وأقام لهم مدينة الثقافة ترحما على أحيائها قبل أمواتها ..

ولا أعتقد أن الثقافة تحتاج إلى مدائن لإثبات نسبها ، فأغلب المبدعين خرجوا من المقاهي والحانات والأروقة والشوارع الخلفية للبنايات إنها الثقافة الرخامية ... ثقافة الأموات تقتات من مأدبة الأحياء ...

تلك جريمة حضارية قام بها النظام الاستبدادي الذي استمات من أجل تلميع حذاء الحاكمين بأمره ، وتلك جريمة الديكتاتورية التونسية التي أفضت إلى إحلال ديكتاتورية الرداءة في كل الوجود على حد تعبير « واسيني الأعرج

فعوضت ثقافة اللايت ، الثقافة الأصلية ، وعوضت الثقافة الخفيفة ، الثقافة العميقة فاندحرت الذائقة الإبداعية ونخر سوس الإنهيار كل المجالات بدءا بالمؤسسات التربوية ووصولا إلى هياكل الثقافة وغاب الحس الجمالي والذوق

الفني الرائق الذي يتربى في الإنسان دربة وتعليما ، وتضاءل الإحساس بالإبداع الصرف ونحونا نحو الاتباع وانثالت حبال الإجتهاد والمكابدة ليضحي الوعي الجماعي وعيا قطيعيا مسطحا للأفكار والرؤى ، وتحولت الإنسانية الفاعلة إلى رعية تابعة وتحول المواطن الصالح إلى حمل وديع طيع ...

واختلط الحابل بالنابل وكثر الهرج والمرج وانكفأ المثقفون على أنفسهم يمضغون حزنهم واعتلى بعضهم ركاب السلطان وغاب آخرون بعد أن شهدت الثقافة الوطنية تدميرا ممنهجا وقرب إعلان إفلاس الإبداع التونسي، وتسرب الوعي القطيعي للمجموعة التائهة وضربت دروب الإبداع في مقتل وجففت منابع الإنعتاق الحق أمام كل الفنون والآداب

ثورة بلا ثقافـــة

وجاءت الثورة فجأة بين منعطفات الطريق الشائكة ، وجاء يوم 14 يناير ليربك حملة الشموع والأسرجة ...

واكتشفنا لوهلة أننا أمام ثورةبلا ثقافة وثقافة بلا ثـــورة ...

وجاءت الثورة دامغة وراشقة في الآن ذاتـــه لترشق أبناءها بطوب الانبهار .

وانتقلنا من حالة التيبس الثقافي إلى حالة الإسهال السياسي بعد حالة من الإنقباض الحاد ، ثم انتقلنا إلى حالة الإنسياب السياسي وفوضى الإنتصاب الفوضوي للسياسة وللأحزاب .

وتمكنت أضواء الثورة من جهر عيون المختنقين المنقبضين الذين غدرتهم الثورة ذات يـــوم .

فتسللت الثقافة على استحياء من واجهة الأحداث وهرع الساسة بكل عنفهم المعهود ليصرخوا في وجه الشعب « نحن هنا « وانتقلنا فجأة من حالة التيبس وضيق التنفس إلى حالة الإغراق والمتاهة .

الثورة ليست وليمة

ولم تجد الثقافة غير المحافظة على التراث وآثار الأقدمين مرتعا لها ، ونظر

بعض المثقفين لهذه الثورة على أنها وليمة كما نظروا منذ مدة إلى الإبداع على أنه غنيمـــة .

فأصبح الكل يلهج باسم الثورة ويركب ركابها ، بل وأسرع آخرون لأخذ صورة جميلة بجانب الثورة ، تلك سيدة المقام ليعلنوا أبوتهم لها ، ولذلك جاءت بعض الكتب راكبة ومتنوعة على الثورة وجاءت الأغاني والأشعار ملتفة على الثورة وطبخت فنون على قدر ملتهب فأعطت فنونا بلا ملامح وآداب بلا طعم بعد أن غابت المكابدة الإبداعية وانحسر الإشتغال الجيد على المنتوج إلى مجرد إخراج متسرع لتداعيات الثورة ومخرجاتها اللقيطة ...

الثورة الجمالية

والآن ، كيف السبيل إلى ماوراء الباب الذي من ورائه العدم ، كما قال الأديب « محمود المسعدي » السبيل أن نستعيد أحقية مفهوم الثورة في إنتاج عقول قادرة على التفكير وقلوب قادرة على الإبداع وأنامل قادرة على الخلق والإبتكار وأفئدة تهفو إلى رحابة الإكتشاف وعمق المعنى وإحساس الكلمة الرائعة ...

إننا بحاجة إلى نحت إبداع حق وصوغ فنون صرفة تضطلع بأدوارها الجمالية بعيدا عن منطق الثورة القطيعية ...

فاليوم الخارق

14 يناير ...كم أنت رائع أيها اليوم الخارق ....

كنت قد عزمت منذ أيام على الاسهام في كتابة تاريخ ذلك اليوم. لم انم ليلتها.... داعبتني أحلام تونس مابعد الثورة...لذلك نهضت باكرا وتسللت خارج البيت حتى لا تحاصرني والدتي بالاسئلة الحارقة...الى اين ستذهب !!!!ولماذا !!!! ومتى تعود !!!!

تدحرجت من باب عليوة نحو الشوارع الخلفية للعاصمة ..كانت المنافذ المؤدية الى شارع الحبيب بورقيبة مغلقة..حواجز الشرطة ورجال الامن تقف عند كل منعطف وتتثبت من هويتك بعد أن تنظر من وجهك مليا...

بعد معاناة شوارعية انقذفت إلى شارع الحبيب بورقيبة وانعطفت جانب الساعة العملاقة التي كانت محاطة بسياج أمني رهيب...

كانت فلول الناس قد بدأت تتقاذف وسط العاصمة من كل الجهات ... وجدت اصدقائى وصديقاتي في وسط الشارع .. الكاتبة فاطمة الشريف والرسامة سعاد الشهيبي والباحثة ليلى ساسي والعزيز منصف الشايب والمحامي الأزهر العكرمي وغيرهم ...ولوهلة تكونت لدينا حمية الحماس الجماعي ... وتعالت الأصوات... الشعب يريد إسقاط النظام.... أوفياء أوفياء لدماء الشهداء...و خبز وماء وبن علي لا.....

بحت الحناجر وعزف الشارع يومها اهزوجة الانتصار....وقبل المساء بدا الاحتدام بين قوات الامن والمحتجين...وانطلقت اصوات القنابل المسيلة للدموع تخترق الجموع...

أصبح الشارع الرئيس بالعاصمة مركضا للمتدافعين نحو الأمل ...نحو الالم... و تفرقنا ولم تتفرق أحلامنا ...وحين عدنا وجدنا أخبار الريئس السابق تسبقنا....

حينها تاكدت بأننا كنا نكتب صفحة جديدة في التاريخ...

كلمات كالسيف

دعاء

دعوت للثورة وأنا دون السابعة، ذهبت ذات صباح إلى مدرستى الأولية محروساً بالخادمة، سرت كمن يساق إلى سجن، بيدى كراسة وفى عينى كآبة وفى قلبى حنين للفوضى والهواء البارد، يلسع ساقىّ شبه العاريتين تحت بنطالونى القصير وجدنا المدرسة مغلقة والفرّاش يقول بصوت جهير:

بسبب المظاهرات لا دراسة اليوم أيضاً.

غمرتنى موجة من الفرح، طارت بى إلى شاطئ السعادة ومن صميم قلبى دعوت الله أن تدوم الثورة إلى الأبد.

نجيب محفوظ

بين القصرين

وعَلمٌ يوجّه فوق المطامح
لتقويض ما شاده العاملون
وسفك الدماء وإرتكاب الفظائع
برئٌ هو العَلمُ لكنّ رؤوس
من الشر سادت وأمست تخادع

منوّر صمادح

.. ستخجل الحقيقة من أسماء كل مَن مرّوا وكلّ من يعارضون من أجل العبور ..

فاطمة الشريف
رجولة خارج الوصايا

الخاتمة

في خضمّ التهافت السياسي وزحام التّهم يمينا وشمالا ووسط سوق تلميع صورة الماضي وخياطة بدلة اخرى للحاضر وامام بهتة عديد الاسماء الثقافية كان لابد من صرخات استفاقة لاجل الوطن فقط وبعيدا عن حسابات تخنق مسار الثورات . وتأرجح أحلام ما قاموا بها.

ليس هناك أصدق من شهادات مثقفين ما كانوا روّاد قصور رئاسية ولا اعمدة يافتات انتخابية ولا كراسي قديمة جديدة تعاند او تستغبي ارادة شعوب ثارت لتقول انزاحوا فلا مساومة على الخبز والكرامة ..

هذه شهادات بعض الاسماء الثقافية التي اتسعت مساحة الكتاب لها وقد نضيف اسماء اخرى في كتاب اخر ولا زلنا نعول على بعض الاسماء الثقافية في وطننا العربي كاصوات لشعوبها وكشموع انارة للحقوق والمحن والاحلام ونحتاجها بعد الثورات العربية .

نعم نحتاج ثورة ثقافية لتحمى أحلام الشعوب ولتكون شوكة في حلق كلَ من

غيّر قلمه ونسي ما كتب وبالتالى لم يتغير من الداخل ولن يثر على أدرانه.

إنَ شعوبنا العربية تعي ماتريد وتنظر بإذدراء لمن يستخف بها، فتصمت مستخفَة به ثم تنتفض لتبيد تاريخ كل من يتعالى علي طموحاتها وكرامتها وكل من يستخف بقدراتها وهمومها ليغلن أن صوتها أو أبوها الروحى أو حاميها .

اهترأت أبجدية الكذب والنفاق والصعود علي الرقاب وانت مسرحية السرقات والثرَاء المشبوه عبر مشاهد سياسية قذرة وأغنيات نضال اليافتات .. كفاكم ما فعلتم .. محزن أن ننحدر بأمَة "اقرأ" نحو الأميَة. وما عاد بالإمكان بتاتا أن نساوم شعوب العزة والكرامة بالخبز والأمن

علينا التخلص من زمن المقت فالطريق لايزال وعرا وطويلا تحية الى كل الشهداء وكل الاقلام الحرة

فاطمة الشريف

ابراهيم السخاوى

للنشر فى السلسلة :

* يتقدم الكاتب بنسختين من الكتاب على أن يكون مكتوباً على الكمبيوتر أو الآلة الكاتبة أو بخط واضح مقروء. ويفضل أن يرفق معه أسطوانة (C.D) أو ديسك مسجلاً عليه العمل إن أمكن.
* يقدم الكاتب أو المحقق أو المترجم سيرة ذاتية مختصرة تضم بياناته الشخصية وأعماله المطبوعة .
* السلسلة غير ملزمة برد النسخ المقدمة إليها سواء طُبع الكتاب أم لم يطبع .

صدر مؤخراً فى سلسلة
الإصدارات الخاصة

96- اليهود فى جنوب أفريقيا .... نجلاء عبد الجواد

97- الحوار بين الإسلام والحضارات.................. د. أحمد مصطفى العتيق

98- كفاحنا ضد الغزاة .... مجموعة كتاب

99- الثورة والوجود .... د. أيمن تعيلب

100- دولة السلطان .... د.أحمد محمد سالم

101- عام فى حياة وطن .... طارق رضوان

102- المؤرقون .... عماد مطاوع

103- فى رحاب الصحراء.. مدد يا شاذلى .... أحمد أبو خنيجر

104- حكايات أسرة أرمنية .... د.نبيل حنفى محمود

105- القوة الخفية .... د. سامح فوزى

106- واقع الصناعات الحرفية .... د. فرحان صالح - د. زاهى ناضر

107- صناعة الآلهة.. دراسة فى أساليب الدعاية للقادة السياسيين...... محمد فتحى

108- الفلسفة الإسلامية (الجزء الأول) .... أ. د. حامد طاهر

109- الفلسفة الإسلامية (الجزء الثانى) .... أ. د. حامد طاهر

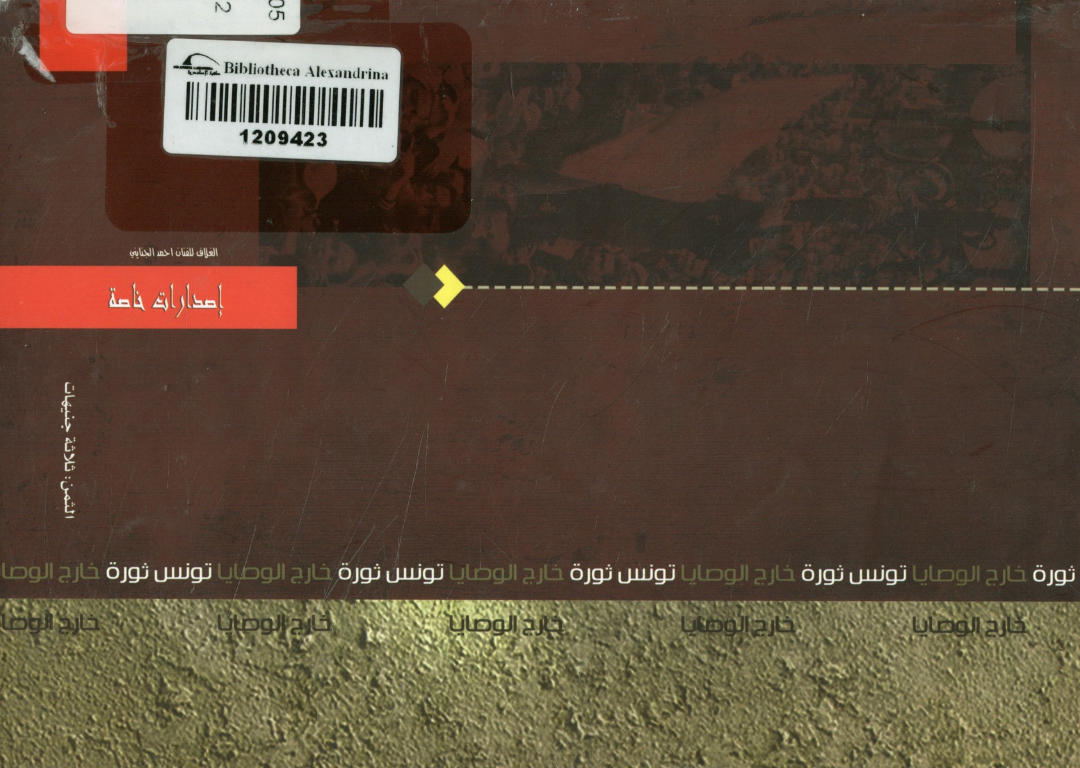
110- يونس القاضى.. مؤلف النشيد الوطنى المصرى ...... د. إيمان مهران

111- دراسات فى تاريخ مصر الاجتماعى .... د. محمد ياسر الخواجة

112- مبانٍ من بخور .... روبير الفارس

113- الإسلام والآخر .... عبد الغفار مصطفى

شركة الأمل للطباعة والنشر
(مورافيتلى سابقاً)
ت: 23904096 - 23952496



إصدارات خاصة

الغلاف للفنان احمد الجنايني

الثمن: ثلاثة جنيهات